شهيرات النساء في العالم الإسلامي

بقلم

صاحبة السمو الأميرة المصرية الجليلة قدرية حسين

تعريب

عبد العزيز أمين الخانجي

الطبعة الاولى

١٣٣٤ هـ — ١٩٢٤ م

حقوق اعادة الطبع محفوظة للمعرب

الناشر
محمد أمين الخانجي
صاحب المكتبة المصرية بشارع العشماوي بمصر

طبع بمطبعة السعادة

اهداء الكتاب

الى حضرة صاحب العزة شريف بك صبرى مدير عموم البلديات .

مولاى .

هذا كتاب جمع حوادث بعض الشهيرات من نساء السلف مما جادت به قريحة صاحبة السمو الاميرة الجليلة قدرية حسين وفقنى الله الى اتمام تعريبه ونشره فى عهد ادارتكم ورعايتكم لقسم البلديات الذي شرفتنى الايام بأن أكون عاملا من عماله وجنديا من جنوده ، فكان من الحق أن أتشرف باهدائه الى مقامكم الكريم ، لا مزدلفا ولا راغبا فى نوال أو عطاء وإنما مدفوعا بعاملى التقدير والاخلاص م

المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] الهادى الى سواء القصد وباسم أنبيائه المرسلين والهداة المخلصين وطلاب الاستقلال والحرية المجاهدين، فى كل عصر ومصر أتقدم الى قراء العربية في مصرنا المحبوبة وفى الامصار العربية الأخرى، بهذا الكتاب الذي وفقني الله الى تعريبه . وأنا قبل كل شيء لا أجد مناصاً من الاعتراف بتشجيع المشجعين من أبناء قومى عند ما أقدمت على ترجمة رسائل الاميرة قدرية حسين أمد الله حياتها ومتع العالم الشرقى بثمار أفكارها ولولا ثقتى بتقديرهم لمجهود هذا العاجز الضعيف وعطفهم عليه في جميع ما ترجمه لما أقدمت على هذا العمل الذى أظننى دونه

وما أظننى فى حاجة الى أن أعرف قراء هذا الكتاب عن مؤلفته وسابق جهودها وفضلها فما هي بالسيدة المجهولة عندهم وتاريخ حياتها الادبية معلوم مشهور لدى الناس أجمعين .

الاميرة قدرية حسين كاتبة تتمشى فى كتابتها مع روح العصر، مع كثير من التربية الدينية الشرقية، وهى تشترك فى مجهوداتها مع روح الديمقراطية الاسلامية الحديثة . يتبين ذلك من خواطرها ومن مقالاتها ورسالاتها التى كان لقراء العربية نصيب

وافر مما عربته لهم وهي تكتب باللغتين اللتين تحسنهما : التركية والفرنسية، وتكاد لا تعلن عما تكتب الا اذا تنبه له بعض الادباء .

ويقضى على واجب الادب أن أذكر أن المرحوم ولى الدين بك يكن كان فى مقدمة الذين تنبهوا الى رسائلها القيمة فعرب لها كتاب خواطرها (نه لرم) وأسماه (ماهو وما هي) غير انه لم يطبع وكنت إذ ذاك ملازما للخزانة التركية أمد الله فى حياة صاحبها استاذى البحاثة سعادة احمد زكى باشا فعثرت بين نفائسها على طائفة صالحة من كتب سمو الاميرة وبادرت الى تعريب خواطرها دون أن أعرف أن المرحوم ولي الدين بك يكن سبقنى الى ذلك .

وقد كان سعادة زكى باشا من أول المشجعين لى على المضى فى تعريب كتب الاميرة رغبة فى نشر مآثر الامراء والاميرات من البيت الملكى الكريم واننا لنسجل هنا بيد الفخار والاعجاب خطبته التى ألقاها على اعضاء المجمع العلمي المصري فى شهر رجب عام ١٣٤٠ الموافق مارس ١٩٢٢ فانها خير كلمة نصدر بها مثل هذا الكتاب وسيراها القارىء بعد كلمة الاميرة وفقنا الله جميعا الى مافيه خير البلاد ؟

القاهرة في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٤٣

عبد العزيز أمين الخانجى

﴿ كلمة الاميرة ﴾

اجتمعنا معشر أهل التوحيد تحت اللواء المحمدى المبارك ، نازلين عند قوله عزوجل : (إنما المؤمنون اخوة) ، فرفعنا ستور الجنسية وأزلنا حوائل القومية فأصبحنا جميعاً منذ ذلك اليوم بنعمة الله اخوانا ، أسرة واحدة ، تجمعهم فكرة واحدة فما أجمل هذا النداء الالهى الذي ضمن لنا السلام والوئام !

أميزنا عند الله أكثرنا استقامة لقوله الجليل (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) فيالله من جمال هذا الدستور الذى يغرى الامة بمكارم الاخلاق !

البلاد الآهلة بالاسلام هى وطننا الدينى . والعلم الاخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث هو لواؤنا الملى . لنا ماض مجيد ينحدر حتى أعماق أربعة عشر عصراً ولنا تاريخ مملوء بالعظائم ، وقد كانت لنا حضارة تزرى بحضارة الرومان ، ولنا ذكريات طيبة تبعث في النفس الطمأنينة مضت علينا أيام رأينا فيها شمس المعارف تشرق فى ديارنا فأبصرنا بنور العلم ماحولنا ووقفنا بقدرة الفن على كل حال وشأن لنا فيا للسعادة لم نثبت في موقفنا ، لم نتمسك بأهداب العلم ، تلك فرصة سنحت لم نقتنصها — فيا للحسرة ! . . . .

غربت شمس المعارف فى شرقنا وبزغت فى غربهم فأمسينا فى ظلام دامس وعشيت أبصارنا عن ماضينا حتى كدنا ننسى

تاريخنا المجيد فيا للأسف ! . . . .

تعكس مرآة ماضينا صوراً شتى لرجال التاريخ ولعظائم الاعمال عندنا كما تشهد بذلك الآثار الباقية في أيدينا مما هو محفوظ في مكاتب الشرق والغرب ، فالاسفار مشحونة بذكر عظمائنا وحوادث ايامهم ووقائع ازمانهم وفي نشر تلك الوقائع وعرضها على أنظار القوم عظة بالغة وعبرة فائقة يرينا كيف كان حالنا وما صرنا اليه في يومنا ! . . . .

لا أريد لقومي أن ينظروا الى الغرب نظرة سطحية، تريهم الاشياء على غير حقيقتها، كمن يرى الاشباح البعيدة عنه على غير حجمها الطبيعي . لا أرى لقومي أن يروا في الغرب كل شيء ، مستسلمين اليه في كل شأن ، بل أردت أن أذكرهم بمجدهم السالف وعظمتهم الماضية وأن يعتقدوا بأن حق تحصيل العلوم لا يسقط بمضي الزمن . أردت لهم كل ذلك ليتشبهوا بعظماء الرجال من ماضيهم الزاهي المشرق ، فانهم بذلك يجلون أنفسهم ويرفعون من قدر ذواتهم ويتذوقون معنى الحياة

بهذا الدافع الانساني قام في ذهني أن أجمع حوادث الشهيرات من نساء السلف وتراجم أحوالهن ، مستعينة على ذلك بالمآخذ المهمة والمراجع الموثوق بها ، فأوصلني البحث الى تراجم أحوال الكثيرات من النساء ممن اشتهرن بالفضل والكمال

فى أصقاع مختلفة من البلدان الاسلامية سواء من العرب أم من الترك أو الهند أو جاوة أو العجم الى غير ذلك .

لابد للانسان أن يجنى ثمار ما يبذره من بذور الخير إن قليلا وإن كثيراً وقد يصل الى ما يريد بالجد والسعى . بهذه الروح ، داومت تتبعاتي وأبحاثي حتى صيرنى البحث والاستقراء الى وقائع ذات بال ، لنساء كن مثال الفضيلة ، جديرات بالتقدير ، لعبن أدواراً هامة فى التاريخ الاسلامى . وسيكون هذا الجزء - هو أول الاجزاء — بمثابة مقدمة مباركة للأجزاء الاخرى التى عزمت على اصدارها . اثنتان من بطلات هـذا الجزء من أمهات المؤمنين وهما : والدتانا السيدتان خديجة الكبرى وعائشة الصديقة ، رضى الله عنهما زوجتا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخر الكائنات توجت بهما هذا الجزء تبركا وتيمنا بسيرتهما الطاهرة ، ولأن لهما حق التقدم على غيرهما من كل الوجوه

الثالثة بنت خليفة وأخت خليفة وأعنى بها العباسة بنت المنصور وأخت الرشيد . والرابعة أول ملكة فى الاسلام ، وأعنى بها الملكة المصرية شجرة الدر ، تلك التى قرىء اسمها على المنابر فى خطب صلوات الجمعة . فهذا الأثر الذى شرعت فى انجازه مدفوعة بعامل الخير قد تم لغاية حميدة وما أطلبه من الجزاء أن يكون له بعض الاثر فى نفس أمتي ومن الله التوفيق ؟

صفحة من مظاهر العبقرية (١)
العلمية فى مصر

لما كنت من أعضاء العائلة المصرية الكبرى ومن أعضاء هذا المجمع العلمي المصري الجليل فانى بهذين الوصفين أشعر فى هذه الساعة بارتياح يخالج نفسى وبابتهاج يتملك وجدانى . هاتان العاطفتان تدفعان بى الى تحية وتهنئة الامراء الصميمين الذين تحدوهم عبقريتهم الى استخدام ما آتاهم الله من وسائل شخصية والي استثمار مواهبهم الخاصة ليجعلوا أنفسهم أيضاً من أمراء العلم والعرفان .

لاجرم أنهم ، اذا سلكوا هذه الجادة ، يعيدون لنا تلك السيرة المجيدة التي امتاز بها الشرق فى عصره الذهبي ويكون من ورائها أكبر الخيرات وأعم البركات لذيالك الشرق فى إبان نهضته الحاضرة .

نعم فقد امتازت دول العرب والاسلام بطابع خاص ، وهو أن الخلفاء والملوك وأركان بيوتاتهم وأمراء حكوماتهم كانوا أولا وقبل كل شيء من الشعراء المجيدين وثانياً وعلى الاخص من العلماء المبرزين والفنانين المبدعين . ومنهم فوق ذلك من يزداد

---

(١) نشرت فى جريدة الاهرام بتاريخ مارس ١٩٢٢

ارتفاعه فى بعض الاحيان بتنازله لممارسة الصنائع اليدوية حتى يحذقها ويبرع فيها . هكذا ارتقت طبقات الامم الاسلامية في مختلف الديار والبقاع حتى وصلت الى المثل الاعلى الذي يحدثنا عنه التاريخ بما فيه من العجب العجاب . ولو شئت أن أسرد بعض الاسماء التي تتوارد على صدرى وتتجارى فى خاطري لطال المقال وضاق المجال ولرأيتم المطربات المرقصات مما طابه لنا سادات الشرق فى أيام عزه واستقلاله بأمره من مجالى المفاخر وغرر الآثار . بيد أن المقام لا يحتمل الجولان فى هذا الميدان لذلك سأثب امامكم وثبة بعيدة المدى بحيث تترك ورائي تسعة قرون كوامل وأقف بكم لحظه واحدة فى دائرة مدينة واحدة هى هذه المدينة الجميلة التى ازدهرت فيها الحضارة العربية على عهد الفاطميين وبنى أيوب والمماليك والخديويين . فأبعث بتحية ممزوجة بخالص الاحترام والاجلال الى روح السلطان الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغورى تحية يرسلها أحد الاحياء الآن الى رجل فارق الدنيا منذ نيف وأربعة قرون . تحية تحدوني اليها فى هذا المقام ثلاثة عوامل من الاعتبارات ، فى كل منها عبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

فأما أولها فلان السلطان الغوري قد أحسن الى القاهرة باقامة أثر مجيد له مكانة فاخرة بين العمائر الاثرية الوطنية ، بل

هو بمثابة الدرة اليتيمة فى فن العمارة العربية البديع بل هو محراب لشتيت الفنون الجميلة فى الاسلام . ذلك المحراب هي المدرسة المعروفة الآن بقبة الغورى وهو الذى انتهت الى القرار فيه خزانتى الزكية التى جمعت فيها طائفة كبيرة مما أنتجته العقول والقرائح في مضمار الآداب العربية وحضارة الاسلام ، تلك الخزانة التى وفقنى الله لوقفها على أبناء وطنى وطلاب العلم أياً كانوا ، وأصبحت لانصيب لى فيها سوي ما يكون لأى فرد من أبناء الامة المصرية وخادمي المعارف على الاطلاق وكان الفضل فى الوصول بها فى خاتمة المطاف الى هذا المحراب لصاحبى الدولة رشدى باشا وعدلى باشا هنالك ألقت عصاها واستقر بها النوى وأصبحت والحمد لله فى أمان من عادية الزمان وعبث الانسان

هذا ، وقد كان الغورى الذى بلغ الثمانين من رجالات العلم والادب . نعم كان من أهل الدراية والعرفان ، بكل معنى الكلمة وبكل ما ينطوى تحت هذا الوصف من المرامى — والمقاصد . ذلك انى منذ عشر من السنين ، أسعدنى الحظ فاكتشفت لهذا السلطان المصري تأليفاً فى النسب النبوى الشريف ، مرتباً على أسلوب فنى بديع ومرقوماً بطريقة هى آية فى حسن الصنعة والجمال . عثرت عليه فى الخزانة الشاهانية العثمانية بسراى طوب قبو بالقسطنطينية فسارعت انقله بالتصوير الشمسى ولاتزال

جلالة الملك فؤاد الاول

صاحب الفضل الاكبر على النهضة العلمية الحديثة فى مصر

زجاجاته السلبية محفوظة بخزانتي الزكية ومعها صورة السيف الذى كان يتقلده السلطان الشجاع وهو غير المحفوظ بدار الآثار العربية نعم أن هذا التأليف الصغير لا يكفى للاشاعة بذكر الرجل وجعله فى مصاف العلماء ولا للتنويه به واطراء عمله فى ندوة مثل المجمع العلمى المصرى ، لولا أنه أنشأ فى القاهرة أيضا مجمعاً علمياً كان نسيج وحده وفريداً فى نوعه ولا يزال كذلك على ما أظن لقد كان ذلك المجمع متنقلا . فيعقد جلساته تارة في القصر وتارات فى المدينة اعنى في احدى القاعات المفتخره التى كانت تزدان بها القصور السلطانية فى قلعة الجبل أو فى الساحات المقصورة على مدارسة العلم بهذا المسجد أو بذياك الجامع بين أرجاء القاهرة . وكان الغورى سقي الله عهده وطيب ثراه يشترك فى الجلسات بصفة عضو بسيط من اعضاء ذلك المجمع العلمى المصرى البحت المحت المحض ويساجل زملاءه من علماء الامة ورجالاتها فى المناقشات ويبادلهم الآراء في مختلف المسائل والمعضلات . انني لا ألقي الكلام على عواهنه ولا أرسله جزافا . بل هاهي محاضر ذلك المجمع شاهد عدل على صدق ما أقول . فقد نقلتها بالتصوير الشمسى بالطريقة الايجابية في جزئين ضخمين أحضرتهما الى دار الكتب ، وهى تحدث الباحث والمسترشد عما كان للبراعة المصرية من الخطر العظيم قبيل انطفاء نبراسها ودخولها فى خبر كان

ذلك ان الجد العاثر قضى بان يكون السلطان الغوري رحمه الله آخر ممثل للاستقلال المصري ؛ اذ بعد سقوط دولته (التي انقرضت معها تلك الامبراطورية العظمى التي شادها المماليك الامجاد) خيم الظلام على مصر وعلى ساكني مصر فتوالى على بلادنا بجور مثلث من الجهالة والانحطاط والانحلال مدة ثلاثة قرون طوال. فقد خسرنا كل شيء : المكانة السياسية، والرخاء المتجري والوحدة القومية. انطمست معالم العلم ومعاهد الادب ورسوم الفنون ودور الصناعات. فلقد سبى الفاتح العثماني جميع علمائنا وفنانينا وكتابنا وشعرائنا وصناعنا وأعياننا وكل من كانت حيثيته ظاهرة وشخصيته بارزة من بياض الناس وقادهم وراءه الى القسطنطينية في اغلال الاسر وقيود الاستعباد

مصاب لو حل بأمة أخرى لبادت أو كادت. ولكن الروح المصرية، روح الفراعنة، روح العرب لم تمت، وهي لن تموت! العم قد تولاها فتور أعقبه همود فخمود فجمود. ففي ثنايا هذا السبات العميق الطويل، كانت السريرة القومية يعتريها شيء من التشنج فتنتفض حينا عن الدهر فتتنبه ثم تتيقظ. يدب فيها شيء من عوامل الحياة أو شيء يقرب من مظاهر الحياة، ولكن الى أمد قصير. ثم تعود الى الرقود. فقد يتاح لمصر من الطواغيت (وهم لعمري قليل) من يمنحه الله شيئا من الفطانة والرصانة

محمد على الكبير

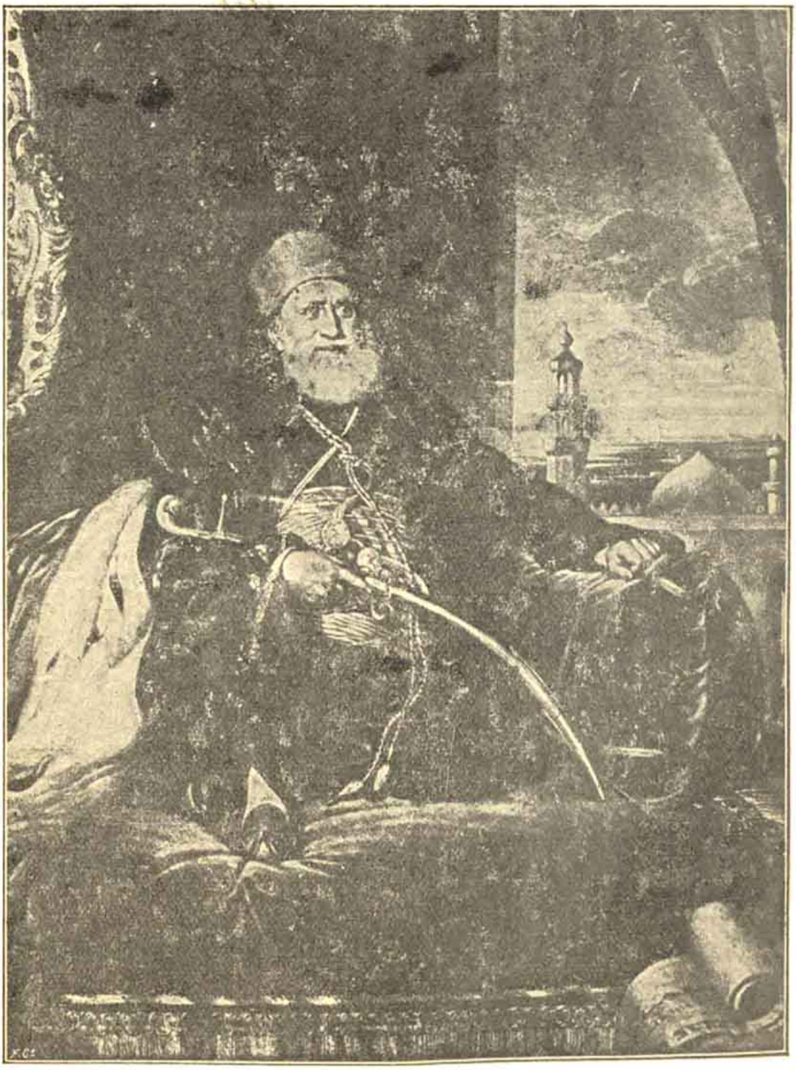

مجدد مصر الحديثة ومعيد الحياة اليها

فيعملون على اذكاء القريحة المصرية . حينئذ نرى النيل وواديه يستنيران بشعله ضئيلة من النور أو قبس خفاق من النار، ولكن هذا اللهيب لايلبث أن يعتوره الانطفاء ، وان كان على كل حال يبعث وميضاً من البوارق النورانية في تلك الليلة الليلاء التى دامت ثلاثة قرون فنرى فى خلالها مشاهد وقتية تتجلى فيها اليقظة القومية . على هذا المنوال ازدانت القاهرة بالجامع البديع الذى شيده محمد بك ابو الذهب بالقرب من الازهر ووضع فيه خزانة كتب حافلة قد أخنى عليها الدهر فتفرقت شذر مذر وذهبت بها العوادى فلم يبق لها أثر اللهم الا مجموعة الخشبيات التى لم يكن فى الامكان اختلاسها الا بعد تفكيكها بحيث لاتعود منها فائدة لغاصب أو مسترق . وبهذه المثابة تجلت اليقظة الوطنية فى مصر مرة أخرى واخيرة فى ايام الامير رضوان الكبير صاحب القصبة المعروفة باسمه الى هـذا العهد وهي التى لاتزال الخيام والستور تصنع فيها على الطراز العربى الآخذ بالابصار . ذلك الامير رضى الله عنه كان ممن يجلون الادب وأهله ويعرفون قيمة العلم ويغدقون النعم على أربابه فقامت سوق المعارف في حكومته ثم انقضت بعد ذهابه الى ربه موفور الحسنات ، راضياً عنه

هاتان هما البارقتان الوحيدتان اللتان اذكرهما الآن في خلال ذلك الرقاد الطويل . وفيما خلاهما توالى ديجور الظلام الكافر .

لاح نجم جديد فاستضاءت به الآفاق وانتعشت بمرآه الارواح والابصار . ظهر محمد علي الكبير . هو أحق انسان بان يوصف بانه مجدد مصر الحديثة ومعيد الحياة اليها . اذا ذكرنا اسمه خطر على البال توا اسم احمد بن طولون واسم يوسف صلاح الدين : ثالوث مجيد كان له الفضل واليه يرجع الفخار من اقالة مصر الاسلامية من عثرتها لم يكن محمد على الا رجل عمل مع أمية لازمته الى ما قبل وفاته بقليل من الاعوام فهو الذى زين مصر منذمائة واربعين من السنين بتلكم المعاهدالعلمية التى قضى الجد العاثر بأن يصبح اكثرها الآن وهو فى حيز العدم ، واأسفاه !

نعم ، لم يكن محمد على من لفيف العلماء ولكنه أحسن الى مصر بما هو خير وبما هو اكثر مما اتحفها به من سبقه على الاريكة من الملوك العلماء . كان سقى الله عهده يقرب ابناء مصر ويخصهم بكرامته ورعايته ويغدق عليهم العطايا والانعامات . كان يتعهد بنفسه تربية القريحة المصرية ويستثير النبوغ الوطنى ، نعم كان يستثير النبوغ الوطنى . فمن ذلك انه كان دائما يختار رجلا من ابناء البلاد لوظيفته ويضع واحداً منهم بجانب استاذ من كبار الاساتذة الذين يستقدمهم من الخارج لبث العلوم الحديثة والمعارف العصرية على ضفاف النيل ثم يخابل لاولئك المعيدين بما

يمده لهم من لوائح الكرامة الموفوره والحظوظ المتمة أو من وسائل التنكر والارهاب لكى يخلفوا بحق واستحقاق أولئك الاساتذة الاغراب الذين قد أغراهم بالهيل والهيلمان الى الوفود على ساحته ولكن الى زمن موقوت والى ميعاد معين معلوم فكان بهذا الاسلوب ذى الحدين أكبر معوان على تقدم التعليم الاهلى وباللغة العربية . والشواهد حاضرة في الاذهان فلا حاجة للاطالة بذكرها

انى أكرر القول وأعيده بان محمد على لم يكن من العلماء. لكنه أنجب لمصر بطلا قوميا تباهى به الامم وتثبت لهم انها أهل لاحراز المعالى في جميع ميادين الحياة الحرة ، وأعنى به القائد الاكبر الافخر ابراهيم باشا الذى طبقت شهرته الآفاق والذى فاق أبونا رفاعه بك رافع في مدح أبيه الامجد حيث قال

في كفه سيفان سيف عناية والشهم ابراهيم سيف ثانى

نحن لا يعنينا الآن الاشارة الى ماجناه ابراهيم من ثمر الوقائع اليانع بالنصر من ورق الحديد الاخضر وانما نذكر ما يناسب موضوعنا من ان هذا الجندى الباسل كان أيضاً في طليعة كتيبة العلماء المحققين وانه كان من أفرادها المستنيرين الذى دلهم حب الكتب والغرام بها . فلقد جمع في أسفاره الكثيرة شيئا كثيراً من الاسفار النفيسة عربية وتركية وفارسية وكان على كل سرخد

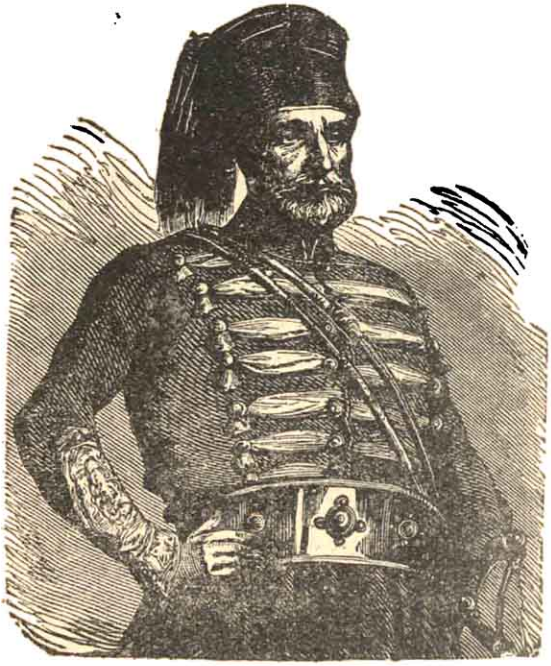

القائد الاكبر الافخر ابراهيم باشا

كل واحد من هؤلاء المحابيب هـذه العبارة (ملك ولى النعم الحاج ابراهيم باشا ـ سر عسكر الخ ـ أو والى جده الخ ـ) أو غير ذلك من الالقاب ، بحسب المناصب والاوقات لكن الجد العاثر والحماقة قضيا بأن ورثته المباشرين آثروا ان يحتفظوا بما خلفه من الفدادين وأن يتخلصوا بثمن بخس دراهم معدودة من تلك الكنوز التى أثرتها القرائح والافهام . فتفرقت هذه المجموعة النفيسة شذر مذر بل طارت على أجنحة الرياح الاربع

تلك الجناية تجددت مع الاسف مرة ثانية فى حضن القاهرة منذ خمس عشرة سنة تقريباً على أثر وفاة المأسوف على شبابه الامير محمد ابراهيم

ولقد لاذت طائفة من كل هاتين المجموعتين بدار الكتب السلطانية فى القاهرة وبالمكتبة البلدية فى الاسكندرية ودخل بعضها فى حرز صاحب هذه الصحيفة وفى أمان صاحب الفضال وصديقه الجليل احمد تيمور باشا وذهب الكثير الى الخارج جرياً على السنة التعيسة التي قضى بها الجد العاثر على ما كان فى مصر المستقلة من خزائن الكتب العامة والخاصة ، وما كان اكثرهما !

ان الفتح العثمانى والحملة الفرنسوية التى أعقبته بعد قرنين تقريباً قد جرد كل منهما مصرنا الاسيفة من كنوزها العلمية

صاحب السمو الملكي الامير عمر طوسون

التى لاتقوم بثمن ثم تلاهما دور الاوربيين والامريكيين فاستنزفوا ولا يزالون يستنزفون الى اوطانهم (وحكومتنا لاهية) معظم ما قد بقى مختفياً أو متخلفاً بوطننا من تلك الثروة العقلية الاهلية ليس فى قوانيننا ما يحول دون استمرار هذا التيار الجارف . لقد حان والله الوقت لايقافه بان ينتهى الامر بدولتنا المصرية (ولو بعد خراب البصرة) لحماية الثمالة الضئيلة التى قد تبرز من مكامنها حيناً فحيناً ، كما فعلت بطائر الايبيس (أبو قردان) على الاقل . لقد حان والله الوقت لقيام حكومتنا الاهلية بما يلزم من وسائل التشجيع لحفظ الثمالة المصرية لمصر كما تعمل حكومات القوم فى اوربا للاحتفاظ بالزائد والفائض . لقد حان الوقت والله لان تستمع حكومتنا الوطنية لمن ينادبها فتحتذي مثال فرنسا وانجلتره وبلجيكا وايطاليا فى صدار تشريع خاص بهذا المعنى يمتنع معه أو يتعذر خروج هذه الكنوز الى ماوراء البحار . هل من سميع ؟ أم هل تذهب هذه الصرخة بلا صدى فى الوادى ، ويصح عليها قول المعرى : ولكن لا حياة لمن تنادى ؟

صحيح انه قد فات الاوان ولكني أتمثل بقول الفرنسيين الذي معناه ان « الامهال خير من الاهمال » فلعل حكومتنا الاهلية تنتهى فتبتدي فى أن تقتدى بما فعله الامجاد من نسل ابراهيم البطل الوطنى الذى عادوا لجمع الكتب القيمة ثم لم يكتفوا بذلك بل هؤلاء

صاحب العظمة السلطان حسين الاول

نحن نراهم تدرعوا بالعلم وأصبحوا لا يهيبون منازلة الاقران فى ميدان العرفان . وها بعضهم يعرضون بضاعتهم ورشحات اقلامهم وعصير عقولهم على رؤوس الاشهاد دون أن يقعدهم خوف التباحث والانتقاد . وأمامنا المثل الباهر فى هذه الحفلة الزهراء هذا المثل يذكرنا بما رأيناه فى ساحة الجمعية الجغرافية الخديوية منذ عشر سنوات . فقد قام فيها الامير ابراهيم حسن فألقى بالانكليزية والفرنسية خطبة ممتعة جامعة عن رحلته في جزيرة سرنديب (وأخشى ان أقول سيلان فى الظروف الحاضرة)

واذكر عمه ولا أنسى : فلقد أقام الامير ابراهيم حلمى أكبر وأخر أثر لمصر والسودان ، ذينك التوأمين اللذين لا يفترقان ولا ينفصلان بل تلك الوحدة هى كما يقال فى عرف القضاء (وولاة لا تتجزأ) ، اذ اتحف العلم بكتابه الوافى بذكر جميع المؤلفات التى تكلمت بكل لغات الارض عن وادى النيل من منبعه الى مصبه وهذا القاموس يقع فى جزئين ضخمين باللغة الانكليزية .

وأين الجنس اللطيف ؟ أليس له اثر جميل فى هذا المعترك الذى يدور عليه حياة الامم الناهضة ان الاميرات المصريات يشاركن اخوانهن فى هذه النهضة الشريفة التى ترمي الى تجديد الحياة العلمية فى مصر العزيزة على كل من الصنفين . يحلو لى ، ورب البيت : ان أعطر هذا النادى بذكرى الاسم المحبوب لدى جميع القلوب ، الذى

صاحب السمو الأمير الجليل محمد علي

له في كل النفوس مهابة ووقار . لقد أسميت بهذا الوصف سيدتي الاميرة (قدرية حسين مد الله فى حياتها) : فقد جادت قريحتها الوقادة وانبعثت نفسها المتاثلة حنانا على الشرق وأهله بكثير من المصنفات، وكلها والحق يقال آية فى بابها . يعرف ذلك ويشهد بصحته الكثيرون الذين قرأوا ماديجه يراعها بالتركية والفرنسية واقد كان لقراء العربية نصيب من التمتع بهذا السحر الحلال فقد ظهر فى عالم المطبوعات ترجمة بعض الشئ من هذه الآثار على يد صديقى وزميلنا الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وعلى يد تلميذى النجيب عبد العزيز الخانجى أفندى

هذا ولست أرانى مفتئتا على ما امتاز به من التواضع رجلان من رجالات مصر المعدودين قد شرفا هذه الحفلة الجامعة . إن الامير الكبير محمد على قد اتحف الآداب العربية باربعة من مؤلفاته التى ضمنها أسفاره في مشارق الارض ومغاربها . كتبها بقلم لا تستهويه أساليب التصنع والصناعة، بل جعلها كمرآة صادقة لما دار في خلده وتملك نفسه وطرق وجدانه فجاءت تناجى القارىء بغير واسطة وتجعله شريك الامير الكاتب فى حله وترحاله كأننا نشهد معه ما وقع عليه نظاره ونتأثر بنفس ما تأثر به ابه وفى خلال ذلك روحه تشاطر روحنا فى كل سطر مما خطه يراعه . ذلك لعمري لانه يكتب عن الشعور الذاتى والاحساس الشخصى

صاحب السمو الملكي الأمير يوسف كمال الدين

وليس بناقل ولا بمترجم عن غيره لان ذلك النفر يكون أكثر علما وأبعد نظراً ولكن له نفسانية وله مزاج يخالفان ماعليه القارىء الذي يخاطبه ممن كان صنوه فى اللغة والوطن والمشاعر والعواطف. ولقدطبع الامير رحلاته طبعاً ملوكيا ووزعها بسخاء على أصدقائه والمعجبين به وهم والحمدلله كثيرون . وها هو قد ناب بقلمه السيال وقلبه الفياض عن سميه الاشم وجده الاغر

تلك الخطة الحميدة قد سلك سبيلها القويم الأمير الجليل صاحب الايادي البيض على الفنون الجميلة العربيه ونصيرها الاكبر فى مصر فقدتولى الامير يوسف كمال طبع ما خطه يراعه بالعربية أيضا عن حوادث رحلته في كتاب لم يسعدني الحظ بالاطلاع عليه ولكنه ابتدع طريقة جديدة جميلة فى اسداء الاحسان الى المحاويج من قومه فأهدى الاربعمائة نسخة كلها الى ماجأ الحرية ذلك المعهد الخيرى الثابت الذى لم نصل رحمه نحن معاشر المصريين مما يضمن له القيام بالمهمة الانسانية التى أخذها على عاتقه لايواء نفر من بنى وطننا قد مسهم الضر وساورتهم البأساء وسيبيع الملجأ هذه النسخ وينتفع بثمنها كله لتخفيف بعض الآلام عن الانسانية المعذبة . وحينئذ يتاح للجمهور أن يعرف مزايا الامير الكاتب بعد أن سمع بمهارته فى مصايده الملوكية وبعد ان استظهر فضائله الجمة على الفنون

سعادة العالم البحاثة الاستاذ احمد زكي باشا

ان كنت المت بهذه الكلمات الى هؤلاء الغر الميامين ونوهت بذكرى ذلك السلطان الجليل أعنى به السلطان الغورى (سقى الله عهده) فما ذلك الا لأنى أتخيل في حدود الافق منظراً خصيباً عما فيه الخيرات والبركات كمثل ذلك السائح الذى أعياه السفر فى قفر ليس له نهاية ، حتى اذا خارت قواه وخانه الجلد وأخذ يستسلم للقدر الغاشم ويستعد للموت الزؤام ، إذا به قد لمح على مد البصر روضة غناء بل واحة فيحاء يكتنفها البخار ويعلوها الغمام فيسرى فى نفسه الامل ، تتجدد قواه ، يعاوده شيء من الحياة .

حينئذ تراه يضاعف المجهود كأنما نشط من عقال . فيهرع مهطعاً ويهرول مسرعاً وقد شدت أهدابه بالاجفان الى ذلك المطمح الغالى ، الى الحياة ! واذا به وهو حافة الينبوع الصافى الزلال ، تظله الاشجار وتتساقط عليه الاثمار .

فأين نحن اليوم ؟

— على مقربة من المرحلة التى سيعاودنا فيها ما كان لنا من الحرية والاستقلال

هاكم أربعة قرون ونصف قرن بمثابة البرزخ بين الغوري الاخير وبين جلالة الملك فؤاد الاول : أربعة قرون ونصف قرن كانت بمثابة الهوة التى حفرتها يد الجد العاثر بين آخر سلطان لمصر المستقلة وبين السلطان الاول لعهد الاستقلال الذى ترنو اليه مصر

ونرجو أن تستعيده صحيحا صريحا وحقيقيا تاما

ان مولانا جلالة الملك فؤاد الاول فى سجل الاستقلال الجديد قد توافرت لديه الوسائل التى توطد دعائم المركز السياسى الجديد تلك الوسائل هى الرجال النابغون من أمته المتفانون في الاخلاص لوطنهم ولاريب أن الذى بوأه الله مقعد ابن طولون وصلاح الدين والغورى ومحمد على لم يهمل العنصر المستنير الفكر لان الدول الجديدة انما تقوم بالرجال الافذاذ . وسيرى بجانب أمته عناصر عالية فى نفس بيته الكريم فيستفيد منها أجل الفوائد فى العمل الذي نحن مقدمون على مواجهته

فسلاما سلاما على هذا العهد الجديد الذى نرى فيه أمراء البيت الملكى واقفين بجانب ابناء الامة وواضعين يدهم فى أيديهم (ويد الله من فوقهم) ليضمنوا الفوز الكامل للمطمح الذى ترمقه مصر الخالدة وليوطدوا بهذا التعاون الخصيب قواعد الاستقلال العلمى والفكرى في وقت واحد مع الاستقلال الاقتصادى والسياسى لتعود مصر الى سيرتها الاولى على عهد الفراعنة والفاطميين والايوبيين والمماليك الامجاد . والسلام عليكم ورحمة الله

احمد زكي باشا

-١-

السيدة خديجة

الناشر
حسين حسنين
صاحب المكتبة المصرية بشارع العشماوي بمصر

حقوق الطبع محفوظه

﴿مطبعة السعاده بجوار محافظة مصر﴾

الفصل الاول

مسكين انت أيها الشرق ... انك لمظلم الجوانب ، قاتم النواحي في كل شأن من شؤنك ، تمر عليك الاعوام والاحقاب فتزداد حاجتك الى النور .

أيليق بأهل التوحيد ، بالقوم الذين يشع نور الاسلام من جوانب قلوبهم أن يطفئوا مصابيح العلم فى ديارهم ، أيحسن بهم أن يدَعوا دورهم وربوعهم فى ظلام دامس وأن يفرّطوا فيما كان لهم من شرف الحال وجلال القدر ؟

كان المنتظر منهم أن يزيدوا الشعلة الكامنة فى نفوسهم ضراماً لتشرق بأنوار العرفان وتسطع باضواء العمران ولكن هيهات .. أضاعوا منزلتهم الأولى ومكانتهم السابقة فى حلقات العلم وميادين الأخلاق .

كان لهم صرح ممرد من المجد والفخار ولكنهم أهملوه ولم يعملوا على تثبيت دعائمه . بل أخذوا يهدمون بأيديهم صرح سعادتهم ثم بدأوا بعد ذلك يتقهقرون عن ميدان العمل والنشاط خطوة فخطوة

أجل لقد فقد الشرق شخصيته الاولى ونسى كيانه وماضيه فتدهور غافلا من مصيبة لأخرى ، متسكعا فى دياجير الظلام الى

أن هوى ، فهوى مجد الاسلام على أثره في وهدة السقوط كان التدهور مدهشاً خطيراً ، ارتعدت له أعصابنا وتولتنا من أجله عوامل الارتباك . فتشتتت الآمال والرغبات وانقلبت المشاعر والتأثرات رأساً على عقب .

لانرتقب اليوم مدداً ولكننا لانرضى أن نحيا بلا أمل . فأين نجد السلوى ؟ وفى أي خزينة من خزائن الكنوز الخالدة نعثر على الامل ؟ وبأى متاع مبهج مضيء نروح عن النفس ليذهب عنها الحزن ؟

أية طريق نسلك ؟ أنمشى فى التجدد من طريق الفناء أم نعود الى ذكريات أيام السعادة لنلمس وجه الحياة ؟

أنعمت النظر كثيرا فى هذه المسائل وقتلت الوقت بحثاً ودراسة ، لانى لم أشأ أن أبقى تحت عبء الضربة التى لحقت أمتى. أردت أن أمسح عن نفسى غبار الايام المتداولة والاحقاب المتطاولة فأخذت فى البحث والتنقيب - كما هو الواجب على مسلمى عصرنا - عن وجوه الامل والتسلية حتى عثرت على ضالتى المنشودة بين صحف الماضى .

فها أنذا أبدأ اليوم بهذا الواجب نحو العالم الاسلامي ، أبدأ بتصوير ما عثرت عليه من وجوه التسلية والامل فى طيات تلك الصحف لتكون دروس عظة واعتبار .

أول وجـه من تلك الوجوه التي أتشرف اليوم بتصويرها هي الناصية الاولى التي أشرقت بنور الاسـلام ، هي أول نجمة تلألأت في شرف سمائه ، فكانت نجمة الخير والامل ، نجمة البركة والفيض ! هي أمنا أم المؤمنين ، السيدة خديجة الكبرى

أما الاتصال بتلك الشخصية العالية والانجذاب الى جلالها في مثل هذه الايام السوداء لما يضيء جوانب النفس بما تصلها من أشعة البهجة والايناس . وعلى القارىء أن يدرك ماتخالجني من المشاعر ، وما أكون فيه من طوفان معنوى وأنا أسرد لقرائى تلك السيرة الطيبة المملوءة بمعنويات خالدة .

سيدة النساء خديجة الكبرى ، نموذج من أطهر نماذج الاسلام وأعظمه خطراً وأجله شأناً ، ومع ذلك فترجمة حياتها المباركة مبعثرة في صحف شتى وكتب عديده من كتب السير . ولذلك أرى أن التصدى لذكر سيرتها العبقه وشرح خلالها العطرة بالتطويل والتفصيل ، من دواعي الشرف لانها تاج فخارنا .

ادركت سيدة النساء أواخر عهد الجاهلية وكانت من أشرف نساء قريش نسباً وأوفرهن مالا وأرجحهن عقلا وأصبحهن وجهاً ، تجمع في تلك النفس العالية كل مزية مشرقه . وخصلة باهرة (١) . أبوها (خويلد) من أشراف قريش ورجالاتها البارزة . أما أمها

---

(١) روضة الاحباب

(فاطمة) فيتصل حبل نسبها بالشجرة النبوية المباركة وبذلك أصبحت ام المؤمنين أقرب الزوجات المطهرات الى الرسول نسباً .

كان لها مكانة سامية بين قومها لصباحة وجهها وجمال نفسها خطبها لاول مرة (عتيق بن عابد) فتزوجته ثم مات عنها فتزوجت شريفا آخر هو (ابوهالة) ،ولدت منه بنتا اسمها (هند) الا أنه لم يعش طويلا وترملت مرة ثانية (١)

ظلت ام هند فى نضارة الشباب (٢) تحف بها اسباب الرفاهة والعز ، تقطن منزلا فخما ذا طابقين وحولها العبيد والجوارى فترمقها الانظار وترمق ماهي فيه من عز ورفاهة ويتكاثر حولها

---

(١) علمنا من المراجع التاريخية التى كنا نستعين بها اثناء تعريبنا للكتاب أن السيدة خديجة تزوجت مرتين : تزوجت عتيق بن عابد المخزومى وتزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وولدت من هذا الاخير ولداً سمته هنداً على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور أحياناً اسماء الاناث فهند هذا هو ربيب النبي صلى الله عليه وسلم أخو فاطمة الزهراء لامها عليها السلام قد عاش وأدرك الاسلام وأسلم . روى عنها بن اخته الحسن بن على حديث وصف النبى صلى الله عليه وسلم المشهور فى الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ماوصف به النبى صلى الله عليه وسلم وقد قتل مع علي كرم الله وجهه يوم الجمل

(٢) روضة الاحباب

طلاب يدها من اعيان قريش ووجوهها فترفض كل طلب من غير أن تفضل احداً على احد وقد كانت بعيدة النظر عالية الهمة توسل اموالها في تجارة الى الشام في مواسم معلومة فتشترى مايروق لها من امتعة الهند واليمن وسائر الامصار لتبيعها بالربح الجزيل ، فكان الداخل اليها يراها ترفل في حلل فاخرة من منسوجات الهند ، ربة دار مؤثث بالرياش الجميلة والمقاعد الفخمة المطعمة بصنوف العاج والابنوس والصدف من صناعة دمشق وغيرها من مراكز الصناعة في تلك الايام

هبت عاصفة من عواصف الاضطراب في نفس السيدة خديجة على أثر حلم رأته ذات ليلة ، فقد رأت فيما يراه النائم شمساً عظيمة تهبط الى منزلها من سماء مكة فيغمر ضوءها ما يحيط المنزل من أماكن وبقاع :

قامت من نومها مضطربة هائجة وسارعت نحو دار ابن عمها (ورقة بن نوفل) وقد كان حبراً عالما بتأويل الاحلام وتعبير الرؤيا وما كادت تفضى اليه بقصة رؤياها حتى أخبرها ووجهه يتهلل بشرا أن تلك الانوار علامة مجيء خاتم النبيين ودخولها المنزل ، أى دار بنت عمه خديجة دليل على أنها تتزوج منه .

للقارىء أن يتصور مبلغ التأثرات النفسية التى تملكت ذلك القلب النقي الطاهر

اصبح خاتم الانبياء بعد هذه الحادثة محور آماله ومحط أفكارها . بدأت تفكر فى حلمها الجميل وتنتظر بكل ما اوتيته من صبر وجلد ، هذا النبي العظيم . وبينما نساء قريش مجتمعات فى عيد لهن بالكعبة الشريفة اذ تمثل لهن رجل من اليهود فلما قرب نادى بأعلى صوته :

— يانساء أهل مكة قد قرب ظهور خاتم النبيين فمن منكن ستكون زوجته ؟

فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت بينهن خديجة فلم ترمه كما فعلن انما ظلت فى مكانها واجمة لا تستطيع حركة من كثرة ما انتابها من ضربات القلب .

رأت ما عملته النساء الاخريات فاجتهدت أن تملك روعها اذ كانت ترتعد ويرتقص قلبها الطاهر وهى تفكر فى آمالها واحلامها .

هل ادرك النسوة اضطراب أمنا السيدة خديجة ، وهن ترمين الرجل بالحصى ؟ انها لبشارة عظمى ، أحلتها من نفسها العالية مكان الاجلال . انها لبشارة كبرى رأت العالم من ورائها فى طرفان من الانوار والاشراق

الفصل الثانى

لمحمد بن عبد الله ، أمين قريش وفخر الكائنات منزلة سامية فى نفس عمه ابى طالب ، تفوق مكانة أولاده . الذين من صلبه . كان يجالسه ويؤاكله ويأنس به كل الانس .

وهما فى مجلس من تلك المجالس ومعهما عتيقة اخت ابى طالب وعمة النبى وقد فرغوا من طعام العشاء ، فقام الامين الى شأن من شؤ نه واذا بعمه يلتفت الى اخته يقول لها مدفوعا بعوامل الاعجاب والتقدير

ـ لقد شب محمد وصار رجلا وآن له أن يتأهل فماذا ترين فى ذلك ؟

فأجابت ؟

ـ انه فقير وخديجة مثرية تتاجر بأموالها وتؤجر أناسا يخرجون بتجارتها الى الشام فليتها تعطيه بعض المال فيتاجر به ويعمل على نمائه حتى تتوفر لديه نفقات العرس

فاستصوب العم هذا الرأى فاستدعي ابن اخيه وقال له :

ـ هاهى ناقتى أهبك اياها يامحمد واليتك تتقدم الى خديجة انها تفضلك على غيرك وترسلك مع رجال ركبها الى الشام فتؤب الينا رابحا[1] .

---

(١) روضة الاحباب

أما الامين فكان جوابه لعمه :

ـ اذا شاءت خديجة أرسلت تطلبنى :

فادركت العمة من حوارهما أن محمداً لن يسعى فى الامر بنفسه لما هو عليه من عزة النفس ولذلك عولت على أن تقوم هى بما يكفل النجاح . وقد تم لها ما ارادت ، اذ أن خديجة ما كادت تسمع ما دار بين العم وابن اخيه حتى تذكرت رؤياها وداخلها سرور خفي لا تعلم مصدره . خيل اليها أن محمدا الامين هذا ، هو خاتم النبيين فأجابت سؤال عتيقة وشفعت ذلك بطلب ارساله اليها .

عندما توجه الامين اليها كانت فى حلة أنيقة وعلى أريكة بديعة ، فتحادثا طويلاً ولم يخرج من عندها الا على قبول منه بالسفر ورضى منها باعطائه ضعف ما تعطيه لغيره .

اغتبط النبي صلى الله عليه وسلم بحسن وفادتها له وجميل مقابلتها ونقل الى عمه مادار بينهما من الحديث فأجابه .

— أبشر برزق عاجل ساقه اليك المولى

المقابلة الاولى بين أمين قريش وفاضلة قومها خديجة كان لها أثر كبير فى نفس أمنا ام المؤمنين فقد امتدت الجاذبية الى قرارة نفسها فأحكمت عرى قلبها بسلوك السحر والدهشة . فملامح النبي وأطواره وكلماته السحرية العذبة نفذت

خلال قلبهـا الطاهر وألقت عليهـا وحى الحب الخالص كما تلقى الشمس أشعتها الاولى من خلال النوافذ وقت الصباح .

اشتهر النبي في ذلك العهد بصباحة الوجـه وكرم الاخلاق وأدب النفس فاينما سار وحيثما أقبل قالوا «هاهو محمد الامين»(١) ولم يكن ذلك خافياً على السيدة خديجة فقد كانت تسمع عن أدبه الجم وجماله الرائع ولكنها فى مقابلاتها الاولى له وهى تحادثه وتحاوره وتملى من مشاهدة طلعته البهية انجذبت اليه بكليتها وتبطنت اعماق قلبها باحساسات خفية توحى اليها أنها أمام شخصية بارزة وأن الرجل الماثل أمامها بنظراته الحادة التى تأسر القلوب وتأخذ بمجامع النفس هو العظيم المنتظر ، خاتم الانبياء والرسل .(١)

نرى خـديجـة بعد ذلك تدعو عبيـدها ومواليها لتعطيهم التعليمات والاوامر بشأن ركبها المسافر للشام ثم تعطف على مولاها ميسرة وقد كانت تثق به ثقة شديدة وتركن اليه فى مسائلها الخطيرة فتوصيه بالامتثال الى محمد الأمين فى أوامره والنزول عند رأيه أثناء الطريق(٢)

تهيأ الركب للسفر وأعد القوم معداتهم فالتحق النبى صلى الله عليه وسلم بهم فى اليوم المقرر فسافروا على الطائر الميمون ووجهتهم

---

(١) الامير محمد على

(٢) السيرة الحلبية

دمشق الشام . وقد حدث ما أثار اعجاب القوم واستفز دهشتهم ذلك أنهم رأوا غمامة تظلل رأس سيد الكائنات اكلما اشتدت حرأة القيظ فتجعل طريقه برداً وسلاماً . فتهامسوا فيما بينهم عن سر ذلك وحكمته وهم الذين يقطعون الطريق ونيران الشمس تلفح وجوههم وتؤذى جسومهم . ولقد كان النبى متلطفاً معهم مقبلا عليهم بجميع ماطبع عليه من رقة الشمائل وكرم الاخلاق فافتتنوا به ايما افتتان. أما ميسرة ، مولى خديجة ، فكان لايدرى كيف يصنع ليجامل عزيز مولاته

أجل لقد سحر القوم بتلك الاخلاق الفاضلة وجذبهم الى نفسه العالية ونفذ الى خلال افئدتهم بمنويته المشعشعة الباهرة ، حتى بدأو بسذاجة فطرتهم وصفاء قلوبهم ، يلمسون من خلال أطواره وحركاته ، ميزة خاصة لاتوجد فى غيره من الرجال .

كان لايزيد اذ ذاك عن الخامسة والعشرين ، لكنه كان اذا تكلم خلته شيخاً دربته الايام وحنكته التجارب، وعند ما وصلوا فى طريقهم الى مقربة من موقع يقال له (سوق بصرى)[1] ناخ الركب ليستريح من وعثاء السفر فانتحى النبى صلى الله عليه ظلال شجرة قريبة من موقعهم وجعل يجيل نظره فيما حوله متأملا متفرجا فتركه ميسره ليزور بعض معارفه فى المدينه وبينا هو فى الطريق

---

(١) السيرة الحلبية

اذا براهب من تلك الجهة يدعى نسطورا اقترب اليه وحياه سائلا عن الشخص الجالس تحت ظلال الشجرة فقال :

ـ من قريش من اهل الحرم فاجاب الراهب :

ـ لا ينزل تحت هذه الشجرة الا الانبياء . أو عينيه حمرة ؟

ـ نعم

فهرول الراهب نحو النبي وهو يردد قوله

ـ ليتني ادرك وقت نبوته

وعند ما اقترب منه تأمله طويلا ثم عاين النقطة التي بين كتفيه وهي علامة النبوة وقفل بعد ذلك الى صومعته مسحوراً مأخوذ اللب على أثر ما وقف عليه وما تحققه من ان فتى القوم المتفيء ظلال الشجرة هو خاتم النبيين المنتظر .

* * *

ثم نرى النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الحادثة الهامة منهمكا في تجارته منصرفاً الى بيع ما بين يديه بدراية ونشاط يعودان عليه بربح طائل فوق ما كان يرجو ويؤمل

لم تكن هذه المرة الاولى في تجارته بل سافر قبلها مرتين في تجارة ومعه عمه ابو طالب ، الا أنه لم يربح فيها قدر الذي ربحه هذه الدفعة : فسر من فوزه سروراً عظيما حيث علم أنه يعود الى خديجة التي تلطفت معه كثيراً بربح وافر يقوم لديها مقام الذى

أسدته اليه ، فأسرع بالعودة الى مكة ليزف اليها هذه البشرى ، غير أن الابل كانت قد أنهكها السير واصبح اثنتان منها لا تقويان على الاستمرار مع الركب فلا مناص من الاناخة ريثما تستعيدان قواهما فأسقط في يد ميسرة ولم يدر ماذا يصنع لانه أراد التعجيل بالعودة حيث كان يرى انهم تأخروا كثيراً عن ميعاد عودتهم .

رأى النبي وهو يراقب القوم بسكون وهدوء ، ماهم عليه من ارتباك وقلق ، فقام نحو الابل ووضع يده الطاهرة على الناقتين التعبتين وقرأ بعض الادعية وما كاد ينتهي من دعائه حتى انتفضتا متأثرتين بمغناطيسية خارقة للعادة ودبت فيهما(١) روح النشاط ، سارية في تلك العضلات المنهوكة سريان النار في الهشيم وعاد الركب الى السير بعد أن عاد النشاط الى الابل وسار القوم في طريقهم هادئين واجمين مطرقين ، وقد بهرتهم تلك المعجزة وسدت عليهم طرق التفكير . ماذا عساهم يقولون عن رجل يظهر مثل هذا الاعجاز ؟ ماذا عساهم يرون في رجل يزيل الاوصاب والمتاعب عن الاحياء بكلمة صالحة ينطق بها فمه ؟ انه الكمال المجسم ؛ انها القدرة تفوق قدرة البشر

رأوا منه مالا يصدقوه لو حدثهم به محدث . رأوا بأعينهم معجزة بهرت نفوسهم فأيقنوا تمام اليقين أن الشاب الذى

---

(١) السيرة الحلبية

رافقهم طول طريقهم بشخصيته البارزة ، خارقة من خوارق قريش .

كانت الاصالة ظاهرة فى تلك الشخصية العالية ، بارزة تتجلى فى سكونه وحركته ، فاينما سار وحيثما أقام اجتذب القلوب وسحر النفوس بنظرات فياضة ووجه مشرق ومزايا قل أن تجتمع فى انسان .

أدرك القوم من أهل الركب ، بأخلاقهم الصافية ونفوسهم الفطرية مافى احواله وأطواره من ميزة ظاهرة ، واعتقدوا أنه لايشابه احداً من الناس فى صفاته وأخلاقه وأنه خارقة من خوارق قريش . الى هذا الحد انتهت مداركهم ولوكانوا من ذوى البصيرة لعلموا أن رفيق طريقهم لم يكن خارقة من خوارق قريش وحدها وانما هو معجزة العالم بأسره ، هو من اختاره المولى لتبديد ظلمات الجهل المتكاثفة تحت سماء ذلك العصر ليصل بالناس الى الهدى ونور العلم والارشاد

عندما وصل القوم (وادى فاطمة) . طلب ميسرة من النبى صلى الله عليه وسلم أن يتقدمهم الى خديجة فحث مطيته نحو مكة فلما وصلها سار توراً الى دارها . أماهي فكانت قلقة لغياب القافلة طول تلك المدة فتوسلت الى مولاتها نفيسة (١) أن تصعد معها

(١) علمنا من المصادر التى بين أيدينا أنها صديقتها وهى لعلى بن أمينه

الى الطاق الاعلى من الدار لتحدثها وتسرى عنها بعض ما ألها من القلق والاضطراب . ولما اشتد بها القلق قامت الى النافذة ترقب الطريق وتتأمل فيما حولها وبدها على مقعد بديع الصنع نظرت طويلاً الى المنفذ المؤدى الى مكة فلاحت لها فى الافق نقطة سوداء لم تتميزها فى بادىء الامر ، تقترب نحو مكة ثم تبينتها جيداً فعلمت أنها مطية يعلوها مسافر تقترب نحو دارها فادركت أنه الامين . وقد لفت نظرها وهى تتأمل قدومه ، غمامة تظلله مسرعة معه ولم يكن فى السماء وقتئذ سحب أخرى سوى تلك الغمامة التى لاتفارقه أينما توجه لتقيه حرارة الشمس فأثار المنظر مكامن الدهشة والاستغراب في نفسها الطاهرة .

وبعد ان وصل اليها النبى صلى الله عليه وسلم وافضى اليها ببشرى ربحها الجزيل ، علا وجهها البشر والايناس وطلبت منه ان يعود اليها بميسرة فعاد ثانية الى مطيته يحثها نحو وادى فاطمة وقامت هى الى سطح دارها لتراقبه سائراً فى الصحراء والغمامة فوقه تنشر ظلال السلام حوله ، تقف أن وقف وتسير إن سار . ولما وصل ميسرة حكي لها ماراه من البراهين والكرامات (١) وما تعرفه فى صحبته من البركات مع حسن السمت والهدى والدل وبما قاله الراهب عنه فما لبثت ان تاهت فى بحار التفكير وكلما لج

(١) السيرة الحلبية

جها الفكر انتقلت من حال الى حال .

ما شاهده ميسرة وقصه عليها آيات بينات على انه الرجل المنتظر ، الخالد الذى سيرفع من شأن العصر . وشهادة الراهب والسحابة التى رأتها رأى العين ، امور زادت من أفكارها وآمالها حتى أصبح ذلك الوجه المبارك المشرق لا يغيب لحظة عن أنظار خيالها . أما شبح تلك الشخصية الكبيرة فقد غمر لبها وقيد روحها بسلاسل الجاذبية الى ان استولى على عرش قلبها النبيل .

كانت تناهز الاربعين، أى انها قطعت مرحلة لا يستهان بها فى طريق الحياة ولكنها مازالت فى نضارة الحياة، عليها مسحة من الجمال . وكان اثر جاذبيته منذ المقابلة الاولى بليغا راسخا لم تتمكن من محوه والتملص من قيوده وقد زاد احتكاكها به أثر هذا الاحساس شدة، كلما تقابلت معه بعد ذلك، الى ان كان يوم عودته من الشام فاذا بتلك العاطفة وذلك الانجذاب قد تعمقا فى القلب، وتشبثا فى الروح فتحولا الى حب شديد.

لقد فتن الرسول الهادى ام المؤمنين بلطفه وشخصيته النافذة واخلاقه العالية ، فوهبته قلبها وتعلقت نفسها الطاهرة بسلك محبته بكل مافيها من قوة وجلد وما كادت يدها تصل الى هذا السلك النورانى حتى اهتز كيانها بقوة غريبة وانقلبت حياتها الهادئة الساكنة الى سلسلة من الايام، حلقاتها مرائر الآمال والاحلام.

الفصل الثالث

جلست أم المؤمنين ذات يوم تغامر بحاراً من التفكير[١] والتأمل ، ثم انتفضت فجـأة ونادت مولاتها نفيسة وقد تمكن منها الشوق الشريف كل التمكن ، وأخبرتها أنها ستر سلها الى دار محمد ابن عبد الله فسألتها عن سبب الرسالة فأجابت

- لتعرفي هل له ميـل للزواج أم لا ؟

فقامت على أثر ذلك تزور محمداً في بيته .

جاءت نفيسة هذه ابن عبدالله وبعد حديث قليل قالت له :

- ما يمنعك أن تتزوج ؟

فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشئون العائلة . فاجابته :

- فان كـفيت ودعيت الى المـال والجمال والكفاءة ؟

فلمـا سمع النبي ذلك أجابها .

- ومن هذه التي تصفينها !

فأجابتـه في الحال :

- خديجة بنت خويلد

فرد عليها صلى الله عليه وسلم :

---

(١) روضة الاحباب

- وهل يصح مثل هذا الأمر ؟

- ماعليك انك لو قبلت أعدك باقناعها

قالت له ذلك وصمتت تنتظر ماسيبدو منه ولكنه ظل ساكتاً لايجيب . فرجعت وقد رأت منه هذا الحال ، تحمل الى سيدتها بشرى القبول .

كانت ميمونة النقيبة فى رسالتها فالله يعلم كم أجزلت السيدة خديجة كرامتها ! ... لقد نزلت هـذه البشرى برداً وسلاماً على قلبها فسرعان ماعينت موعد العقد فى الحال وارسلت نفيسـة الى دار الامين ثانياً ، تخبره بالحضور اليها فى اليوم المعين فقبل الرسول ذلك مسروراً وبدأ الطرفان منذ ذلك اليوم فى معدات العرس .

كانت السيدة خديجة وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتقابلان قبل يوم الزفاف وقد استأذن الرسول ذات يوم عمه فى الذهاب الى دار خديجة فأذن له ، ثم أرسل وراءه مولاته عتبة لترى ماذا يفعلان وفيم يتحادثان ؟ فتعقبته امتثالا لامر مولاها وكان النبى قد وصل قبلها ، فأخذت السيدة خديجة يد الرسول صلى الله عليه ووضعته على صدرها فوق قلبها الخافق ثم قالت له بتأثر

- بأبى وأمى أنت اقسم أنى لا أفعـل هذا لريبة أو لسوء ولما اطلب من المولى أمراً أرجو أن يتحقق وهو أن تكون

نبيه المرسل واذا اختارك الله لهذا الامر الجليل عرفتَ قدري ورفعتَ شأني ودعوتَ الى الله من أجلي .... فكل ما أطلبه من الله هو أن يجعلك لي .

فأجابها سيدنا محمد بقوله :

- والذي نفس محمد بيده لاتذكرن جميل صنعك معي اذا تم لك ماتشتهين واما اذا كان رسوله المختار غيري فانك تصلين الى غرضك ان شاء الله مادمت تفعلين كل هذا في سبيل الرسول

هذا ما دار بينهما من الحديث نقلته عتبة الى مولاها ابي طالب كما رأته وسمعته .

الفصل الرابع

أقبل القوم من بنى هاشم يوم الاملاك - وهو يوم العقد - وفيهم كريم فتيانهم ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبد الله ، يحف به عماه ابو طالب وحمزة [١] فنزلوا من بنى عمهم اكرم منزل وأسناه ؛ حيث قابلهم واحتفي بهم عمرو بن أسد ، عم السيدة خديجة . وبعد ان اكتمل عقد اجتماعهم قام ابو طالب بن عبد الله سيد قريش وامامها فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضئ معد [٢] وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمنا ، وجعلنا حكام الناس . ثم ان ابن اخي هذا ، محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل وعارية مسترجعة . وهو والله بعد له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد رغب اليكم رغبة فى كريمتكم خديجه ، وقد بذل من الصداق ماعاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونشا [٣] . »

---

(١) السيرة الحلبية

(٢) ضئضئ الشيء معدنه (٣) النش عشرون درهما وهو نصف

ثم قام على أثر ذلك ابن عمها ورقة بن نوفل وهو الذى فسر لها رؤياها الجليلة فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ماعددت. فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله. لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله(١) . »

وكان ورقة فى موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد ، عم خديجة فالتفت اليه ابو طالب وقال:

ـ ياورقة ادع عمها يشاركك فى العقد

فنهض عمرو بن أسد فقال :

« اشهدوا على معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد»

وهكذا صادق القوم على زواج النبى صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد . وكان الرسول جالسا بجانبها أثناء العقد فلما انتهت الصيغة طلبت اليه أن ينحر جزورا من

الاوقية ويروى انه اصدقها عشرين بكرة

(١) ويروى أنه انتهى من خطبته بقوله وقد جهزتها باربع مائة مثقالا ذهباً

البكرات التي أصدقها عمه ابو طالب مهراً فذبح احداها في الحال وأطعم القوم وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنين .

أما الرسول صلوات الله عليه فقد افعم صدره سروراً حتى أن أبا طالب عند مالاحظ حالته الروحية حمد المولى كثيراً

الفصل الخامس

سعادة يالها من سعادة، تلك الحياة الطيبة الصالحة التى أمضاها النبي الهادي ، فخر العالمين ، مع سيدة النساء خديجة ام المؤمنين.

كانت خديجة فى بيتها مع زوجها الجليل، فخر الكائنات المثل الاعلى فى الموادة والموادعة والمواساة والترفع عن الكلفة وبذل المعونة ، تقوم باداء واجباته وقضاء لوازمه بجلال خاص بها ، وتجتهد فوق ذلك كله ، بكل ما آتاها الله من ذكاء وفطنة وبكل ماجبلت عليه من شفقة ورقة أن تجعل أيام حياته تمر بلذة ساحرة وأنس لا مثيل له .

كان النبي صلى الله عليه وسلم فى نظرها ، شخصاً فذاً يستحق العبادة والتقديس وما كانت تشاهده فيه من درجات الكمال يزيد من قدر صفاته النادرة ومزاياه الجمة رفعة . هذه الحالة الروحية دفعتها الى بذل النفس والنفيس فى سبيل مرضاته وما فيه سعادته وان تبدد بيدها الكريمة ماقد يتلبد في سماء حياته من سحب الهموم والاكدار

ان الاخلاق الفاضلة والصفات الحسنة الفطرية التى امتاز بها الرسول فى تلك الايام ، فى بيئة عم فيها الجهل والميل مع الاهواء، لما يلفت الانظار ويستهوى الالباب

كان نبينا المعظم المثل الاعلى والمعجزة الكبرى في نظر الجميع، وليس في مقدور امرأة متوسطة الذكاء أن تشارك مثله في الحياة تقطع معه مراحل العمر

ولقد كان رسولنا الهادي ومرشدنا الاعظم موفور الحظ، سعيد الطالع، اذ رزقه الله امرأة كخديجة ذات شخصية عالية تدرك جلال قدره وعظيم استعداده ومواهبه، فيلتذ فكرها بمعنويته وتشاركه في نورانيته وتملأ بمهارتها كل جوفاء من حياته. كانت السيدة خديجة في نظره النغمة الحلوة التي لا ننساها الاذن والابتسامة العذبة التي لا يمحى خيالها من صفحة الذهن

مضت حياتهما المشتركة في وئام وسلام فقضيا خمساً وعشرين ربيعاً لم يعكر صفوها عتاب صغير أو نكد طفيف.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخص زوجته باحترام كبير[1] فلها في نفسه أسنى منزلة وفي قلبه أسمى مكان، لا يفتأ يعترف بشكرها، حتى أنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوج سواها، مع أنها كانت اكبر منه سناً، وله منها صلوات الله عليه وسلم ثمانية أولاد، أربعة ذكور وأربعة أناث وهم: القاسم والطيب والطاهر وعبدالله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء.

---

(١) كتاب السير للويسي

الفصل السادس

عنـد ما بلغ نبينا الهادي ومرشدنا الكبير فخر الكائنات ورسولها الخطير ، الاربعين من سني حياته ،[1] كان يرى الضوء والنور ويسمع صوت النداء ولا يرى أحداً . ثم صار يرى الرؤيا الصالحة في النوم وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ولقد يئست روحه العالية من أن تجـد فيما حولها ما يروي أوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه ، بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة في كل رؤية وكل سمع ولذلك رأينا محمداً قد حبب اليه الخلوة والانفراد وكان لغار «حراء»[2] الحظ من هـذه الروح الحائمة على حبيبها ، تذكر الله وتطيل التأمل والفكر .

(١) قصص الانبياء

(٢) كانت عبادته فيه الفكر وقيل الذكر وهو الصحيح واختلفوا بأي الشرائع كان يدين تلك الايام فقيل بشريعة نوح وقيل ابراهيم وهو الظاهر وقيل موسي عليهم السلام وقيل غير ملتزم شريعة أحد وهو المختار لظاهر قوله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » واتفقوا أنه صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنماً ولم يقارف شيئاً من قاذورات الجاهلية « المعرب »

ففي يوم من ايام عزلته وقد تناهي صفاء قلبه بما اعتاده من الخلوة ، انفض ختام السر المكنون وانكشف الغطاء عن الامر المصون ، جاءه الامين جبريل برسالة من الملك الجليل فألقى عليه الآية الأولى [١] من الكتاب المنزل

رجع الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم من « حراء » ممتقع اللون ، مرتجف الصدر ، يعلوه الاضطراب ، اضطراب الوجل الحائر وهو يقول

- زملوني زملوني

فزملته السيدة خديجة حتى ذهب عنه الروع وهي مستغربة لما حدث ثم فتح عينيه الشريفتين فقال لخديجة بعد أن قص عليها الخبر :

- لقد خشيت على نفسي

فاجابت

- والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق

وبعد أن هدأ روعه واطمأنت نفسه ، انطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل ابن عمها فقالت له خديجة :

يا بن عم اسمع من ابن اخيك فقال له ورقة :

- يا ابن اخي ماذا ترى ؟

---

(١) اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم

فأخبره الرسول خبر ما رأى ، فقال له ورقة :

ـ أبشر يا محمد أنت خاتم الانبياء الذى أخبر به عيسى بن مريم وهذا الناموس الذى أنزله على موسى ياليتنى فيها جـذعاً (١) ياليتنى أكون حياً اذ يخرجك قومك وان يدركني يومك أنصرك نصراً

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـ أو مخرجى هم ؟

فأجاب :

ـ نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى

وكان ابن عم خديجة هذا قد شبع من الاعوام وارتوى من حديث الانام ، تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ورضى بدين ابن مريم (عليه السلام) دنيا وقد صدقت نبوءته وتحقق كل ما اخبره به .

فتر الوحي بعد ذلك فترة طويلة بعد ورود جبريل الروح الأمين فى المرة الاولى فكان النبي يعتزل فى الغار مترقبا لذلك الجسم المهيب بشوق عظيم ، ولكن بدون جدوى فيحزن لهذا الامر حزناً شديداً . الا أن السيدة خديجة التى كانت تقرأ صفحات قلبه وتعلم مكنونات ضميره وحالته الروحية تبذل كل ما فى وسعها لمواساته ودفعه الى الصبر والطمأنينة

---

(١) أى شاباً

كانت تؤيده وتؤازره وتشرح صدره وتخفف عنه أعباء الهم والحزن ، تجالسه وتعاشره لتبدد عنه سحب الشك والريبة ، تفاكهه وتحادثه برقيق الكلام وحلو الحديث مداواة لآلام نفسه ، تسوق اليه العظات والعبر تطميناً لخاطره

لقد أحبت بعلها حباً عميقاً كبيراً بلغ من عمقه وخطورة شأنه أن أحاط الرسول بسياج يقيه من كل شر أو أذى ، فكانت لروحه ظلاً ظليلاً ولقلبه برداً وسلاما . فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لأنها خلقت لتكون زوج ذلك الرجل الذى سيأتيه أعظم الامور تشد أزره وتأخذ بيده . أما هو فكان يقابل هذه الصداقة الخالصة باحترامها ومودتها وإكرامها الاكرام الجزيل

امتد أجل تلك الفترة الى ثلاثة أعوام مضت بين مرائر الشبهة وآلام النفس ، لم يتيسر للنبي الهادى رؤية جبرائيل عليه السلام أثناءها ، وانما كان يتراءى له ملك آخر هو اسرافيل يمده بالارشاد والتعليم .

ثم عاوده الروح مرة أخرى والنبي صلى الله عليه وسلم معتكف فى حراء ، فارق فى بحار التأمل والفكر ، وقال له :

« يا أيها المدثر قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر »

فكانت هذه الآية الشريفة مبدءاً للبعثة المحمدية وعلى أثرها تعلم الرسول الوضوء والصلاة ودعا السيدة خديجة الى الاسلام فآمنت به وكان وجهها أول وجه مبارك أشرق بنوره

وكثر تردده صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى (حراء) ونزول الآيات عليه وكان كلما نزلت آية قرأها على السيدة خديجة فتثبت قلبه وتروح نفسه وتؤيد أمره . وجعل يدعو من يأتمنه من أهل مكة سراً الى أن آمن به كل أصدقائه ومحبيه ودخلوا فى زمرة الصحابة المكرمة حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فامتثل صلى الله عليه وسلم ماأمر به وأظهر دعوة الحق فكثر أنصاره واشتد حنق المشركين من قريش عليه فأجمعوا الشر له وعرض عمه ابو طالب للشر دونه ، فلما رأت قريش ذلك، اجتمع أشرافهم ومشوا الى أبى طالب وقالوا له :

ـ ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه فانك على

مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيه . فقال لهم ابو طالب قولا رقيقاً وردهم رداً جميلا . ومضى رسول الله على ماهو عليه فشرى الأمر بينهم وبينه حتى تولدت إحن وضغائن . ثم مشوا الى ابى طالب مرة أخرى وأعذروا اليه فى أمر النبي صلى الله وآله وسلم واشتد قولهم فى ذلك فعظم على ابي طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلانه النبي صلى الله عليه وسلم . ثم كلم الرسول فظن صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه تركه ، والعجز عن نصرته ، فقال:

- ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو اهلك فيه ، ما تركته

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً وكان ابو طالب يحب ابن أخيه حباً جماً ولم يكن قد اسلم بعد ، فما كاد يراه حزيناً حتى قام اليه ولحق به يقول

- يا ابن اخي قل ما احببت فوالله لا اسلمك لشيء ابداً وانا على قيد الحياة .

أما أمنا خديجة الكبرى فقد ضحت فى سبيل الدعوة كل مال ونفوذ فتؤازره وتثبت قلبه وتقوى حالته المعنوية لتنسيه ما يلحقه من اذى المشركين

كانت اذذاك فى الخامسة والستين من سنى حياتها وكانت اكبر مسلمات مكة شأنا وأعلاهن نفوذاً . كانت منبع الامل الفياض

تسكب معانى النشاط والعزيمة فى روح بعلها المبارك . ولكن قد آن لهذا النبع الطاهر أن ينقطع عن فيضه الغزير شيئا بشيئا حتى كان فى أواخر تلك السنين العشر الشداد من البعثة على سرير الاحتضار شخص عزيز جداً ! ترفرف روحه حائمة فى هذا المحيط الصغير الى ان كان جاذب من أمر الله وسنته قضى بطيرانها اليه وأمر الله أعلى واليه المصير.

هذه الروح ، هى روح السيدة خديجة ، تلك التى كان لانتقالها الى جوار ربها وقع الصواعق فى الدار النبوى ، تلك التى ماتت وتركت رسول الله فى حزن ووحشة.

***

دفنت السيدة خديجة بالحجون فى مكة ونزل النبى صلى الله عليه وسلم فى حفرتها . وقد كان وفاتها عقب موت عمه ابى طالب فأثر فيه ذلك تأثيراً شديداً.

كان يشعر بفراغ كبير فى الحياة ، ولم يكن اذ ذاك من يستطيع أن يملأ هذا الفراغ ، كان صلى الله عليه وسلم يقول عن زوجته أنها خير النساء فى الاسلام كما ان مريم خير نساء عالمها .

وقد اثنى صلى الله عليه وسلم على خديجة مالم يثن على غيرها وانى لأسوق هنا حديثا مرفوعا عن زوجته الثانية السيدة عائشة دليلا على مكانة السيدة خديجة ام المؤمنين من نفس زوجها اكرم الكائنات صلى الله عليه وسلم.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد على السيدة خديجة حتى خشى عليه، الى أن تزوج السيدة عائشة بنت ابى بكر بعد ثلاث سنوات من وفاة السيدة أم المؤمنين

قالت السيدة عائشة : «كان رسول الله صلى عليه وسلم لا يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها وكان اذا ذبح الشاة يقول ارسلوا الى اصدقاء خديجة ، فذكرها يوماً من الايام ، فأخذتنى الغيرة فقلت : هل كانت الا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ، فغضب ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ، قالت عائشة فقلت فى نفسى : لا أذكرها بعدها بسببه أبداً ، وذكرت ذات مرة فقال «انى لأحب حبيبها ، الوفاء من الايمان »

ها هو حديث السيدة عائشة ، كل كلمة منه آية بينة تنطق بعظة بالغة . فليس لى ما أقوله سوى أن من يتأمل قليلا فى سيرة هذه السيدة الطاهرة ، وفى محبة الرسول لها قبل مماتها واحترام ذكراها بعد وفاتها ، يدرك لاول وهلة ما امتازت به من شخصية بارزة ونفس عالية .

كانت تزيد عن النبى صلى الله عليه خمسة عشر سنة ، ولكنه مع ذلك أنزلها من نفسه المكانة السامية فى الحياة ، وحفظ جميل ذكرها

بعد الممات . فيالله من تلك الجاذبية الشديدة والشخصية العالية !
وهل أستطيع بعد ذلك كله الا أن أختم سيرتها العبقة بالحديث
النبوى الجليل :

الوفاء من الأيمان !

-٢-

السيدة عائشة

الفصل الاول

— الهجرة النبوية —

السيدة عائشة ، هي بنت ابى بكر الصديق ، من اعلام قريش عزة وجاها ، وأحد الاربعة المقربين الى الرسول صلى الله عليه في الاسلام ، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية

عقد الرسول صلى الله عليه وسلم عليها فى العام الثالث من انتقال زوجه السيدة خديجة الى دار الخلد والبقاء . الا أنه لم يدخل بها فى عامه ذلك لان الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السعادة اذذاك .

* * *

نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم تكن تطمع به فى حياة ابى طالب ، اذ كانوا يخشون بأسه ويهابون سطوته ، فلا يستطيعون اظهار البغض له علانية ، مع أن مراجل قلوبهم كانت تغلى حقداً عليه ، ونفوسهم الشريرة تضمر له ألوان السوء والكيد . ولما ماتت خديجة رضى الله عنها بعده بثلاثة أيام تضاعف حزنه صلى الله عليه وسلم .

فى مثل هذا الوقت العصيب ، أي فى الآونة التى اشتد فيها حزن الرسول صلى الله عليه على فراق هذين الحبيبين ، جهر المشركون بعداوته وأطلقوا العنان لحقدهم الكامن ، يثور ثورة البركان ،

حتى اصبحت الاقامة فى مكة على هذه الحال مشقة ليس بعدها مشقة . بدأ المشركون يناوئون الرسول واتباعه المقيمين فى مكة ولا يدعون وسيلة من وسائل الاذى والاقلاق دون ايصالها اليهم ، وقد جربوا كل ما فى استطاعتهم من صنوف الكيد والاذى ، لارجاع النبي عن دعوته والحيلولة بينه وبين رسالة ربه الى الخلق ، فقد كان كل واحد منهم حريصا على الفتك به واستئصاله والفراغ منه او يقدر على ذلك . وقد دام الحال على هذا الوجه من الشدة والقساوة ثلاثة اعوام ، فضاقت الصحابة ذرعاً ولم يروا بدأ من الالتجاء الى المدينة المنورة ، فساروا الى دار السلام مهاجرين أرسالا أحادا وثلاثا

ومن الغريب أنه بينما كان المسلمون يلاقون مثل هذا الاضطراب فى مكة ، اذا بهم يتكاثرون ويحتشدون فى المدينة ، ولما كانت الدعوة قد وصلت كثيراً من القبائل وآمنوا بالرسول كانوا يكرمون وفادة المهاجرين فى طريقهم الى المدينة ويبذلون لهم المعونة والتعضيد ، ولم يتخلف من اتباعه صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وابو بكر الصديق فانهما حبسا انفسهما على صحبة الرسول

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام ينتظر أمر ربه بالهجرة دون أن يظهر ذلك وكان ابو بكر رضى الله عنه قد تجهز للمهاجرة الى المدينة والح على النبي بأن يأذن له بذلك فقال له :

- « على رسلك وأني أرجو أن يؤذن لى » !

فاحتبس ابو بكر لذلك .

ولما رأت قريش مالقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من طيب الحال وحسن الجوار فى المدينة والمعونة ، التي بذلتها لهم القبائل التي آمنت ، رهبوا ذلك وحذروا خروج رسول الله وكان أخوف مايخافونه ، هجرة النبي الى المدينة فيلتف حوله عصبة من المؤمنين يكونون نواة قوة اسلامية كبرى ، فاجتمعوا في دار الندوة كعادتهم وتشاوروا فى أمره فقر رأيهم على أن يجمعوا من كل قبيلة شريرا فيقتلونه دفعة واحدة فيفترق دمه بين القبائل فافترقوا على ذلك بعد أن أقام الذين اختاروهم لهذا العمل على باب الرسول ، فخر الكائنات ، في تلك الليلة

الفصل الثانى

جاء جبرائيل الروح الامين ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقصد المشركين ، وبلغه أمر الهجرة واصطحاب أبا بكر الصديق معه فقال النبي لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه

« نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الاخضر فنم فيه فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه »

ولما قعدوا على بابه لذلك ، خرج عليهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وبيده حفنة من التراب ، فجعل ينثره على رؤوسهم وهو يتلو صدر سورة يس وبينما هم ينظرون الى بعض بعيونهم وقد آذاها التراب أتاهم آت فقال لهم : ما تنتظرون ؟ قالوا محمداً . قال لهم : خيبكم الله ، قد خرج والله عليكم محمد ثم ما ترك رجلا منكم الا وقد وضع على رأسه ترابا فتفقدوا ذلك فوجدوه كما قال . ثم دخلوا منزل الرسول ونظروا الى الفراش فوجدوا علياً عليه السلام مسجى بالبرد ، فظنوه النبي صلى الله عليه وسلم فبقوا حينئذ متحيرين حتى أصبحوا ، فقام علي عليه السلام فحين رأوه قالوا أين محمد ، فأجابهم بقوله لا أدري ؛ فاشتدت حيرتهم

واستطفى بدهم [١]

وقد أثر اختفاء الرسول على هذا الوجه فى نفوس المشركين وحنق لذلك وجوه قريش فأخذوا عليه بالرصد والطلب وأطمعوا من يجده ويأتيهم به بمائة ناقة وبذلك خرج الاشرار والسوقة فى اقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم .

أما الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ، فقد اختفى فى مكان بعد خروجه من منزله . وفى اليوم التالى أقبل نحو دار أبى بكر الصديق نحو الظهيرة متقنعاً فاستأذن صاحب الدار كما تقتضيه الآداب الاسلامية فقام اليه ابو بكر رضى الله عنه يقول :

وانما هم أهلك قال :

ـ قد اذن لى فى الخروج . فسأله ابو بكر

ـ وهل أنا معك؟ قال:

ـ نعم

فبكى ابو بكر حينئذ فرحاً وقال :

ـ بأبي أنت وأمى يارسول الله نخذ احدى راحلتى هاتين .

فأبي الرسول صلى الله عليه وسلم الا بالثمن . واستأجر ابو بكر دليلا ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه مكاناً يبعد نحو ساعة عن مكة

---

(١) نزل فى ذلك قوله تعالى : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أويخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

وفى ساعة معينة من ساعات المساء خرج الرسول فخر الكائنات ومعه ابو بكر الصديق رضى الله عنه واعتصما بالغار فى جبل ثور على مسافة ساعة من مكة، وما كادا يلجان الغار، حتي أوحى الله الى عنكبوتة فنسجت خيوطها على بابه وأعقب ذلك يمامتان بنتا عشا فوق خيوط العنكبوت وباضتا فيه .

وقد وصل القوم فى بحثهم عنهما الى جبل ثور ، وقاربوا الغار ووصل جماعة منهم، بينهم رجل يدعي اميه بن خلف باب الغار ، فقالوا لبعضهم : لندخل هنا يا قوم . فأجابهم أمية :

ما اسخف عقولكم ان العناكب قد نسجت خيوطها هنا ، قبل أن يولد محمد ، وانظروا الى اليمامتين لو كانا هنا لما أفرخت اليمامتان

فرجع القوم على أثر ذلك الا أن الرسول والصديق كانا قد ابصرا بأقدام القوم فاغتم ابو بكر لذلك وقال :

ـ لو أصابنى بأس يارسول انه لما هى ذلك أما ولحقك ضر لا سمح الله فتهلك جميع امتك

فقال له الرسول يريد تسليته :

ـ لاتحزن ان الله معنا .

وعند ماقفل القوم راجعين وابتعدوا عن الغار قال له الصديق :

ـ يا رسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا فقال :

ـ اسكت يا أبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟

مكث النبى صلى الله عليه وسلم وصديقه فى الغار ثلاثا يبيت عندهما عبد الله بن ابى بكر، وهو غلام شاب ثقف يدلج من عندهما وقت السحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، ثم يأتيهما حين يختلط الظلام ليخبرهما باحوال قريش وحركاتهم . وكان على مقربة من جبل ثور أحد موالى ابى بكر رضى الله عنه، يرعى قطيعا من الغنم فيأتيهما بحليبها يتغذيان به

وبعد الثلاث، جاءهم الدليل بالراحلتين فارتحلوا وأخذبهم من طريق السواحل وما زالو كذلك حتى جاءوا موقعا يسمى (قديد) ومروا على خيمة رجل يسمى ابو معبد ولم يكن بها سوى زوجه وأمه نسألوا زادا عند (ام معبد) فلم يصيبوا عندها شيئا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاة فى خيمتهم وسألها هل بها من لبن ؟ قالت:

ـ هى أجهد من ذلك انما خلفها عن الغنم الجهد

فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها فى شاتها فتماجت عليه ودرت ودعا باناء يربط الرهط فحلب وسقاها وسقى أصحابه وشرب آخرهم ثم ملأه وغادره عندها .

ولما عاد ابو معبد الى خيمته ورأى الرهط سألها ماهذا فقالت لاأدرى انما حضر هنا رجل مبارك مسح بيده ضرع الشاة وهو يقرأ بعض الادعية فدرت لبنا كما ترى . فأجابها:

ـ لابد وأن يكون فى الأمر بعض الحكمة صنى له شكل هذا الرجل .

فوصفت له النبي صلى الله عليه وسلم وما رأته عليه من المهابة والجلال فقال : هو النبي الذى ظهر من قريش ليتني كنت هنا فابايعه على الايمان

***

وبعد متاعب جمة ومصاعب شتى ومعجزات باهرات ، وصل الرسول صلى الله عليه وسلم قرية (قباء) [1] القريبة من المدينة المنورة ، فلبث فيها بضع أيام يستريح من وعثاء السفر وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد فى الاسلام ووفد عليه وهو مقيم بهذه القرية ، الانصار الكرام ، يتشرفون بنور طلعته ويهنؤنه بسلامة الوصول اليهم . وكان بينهم حسان بن ثابت ، شاعر المدينة المفلق ، فمدحه بقصيدة بليغة . ووصل سيدنا على الى زمرة الركب فى قباء بعد أن سلم ما كان فى عهدته من الأمانات الى أوبابها كما أوصاه الرسول ، وتحرك الرسول منها فى يوم الجمعة ومعه مائة نفر من اهل الاسلام فأدركته الصلاة فصلاها فى بطن وادى (رانوناء) وكانت

(١) قباء بالضم هي مساكن بنى عمرو بن عوف من الانصار وقيل لبث الرسول فيهم أربع عشر ليلة وقيل ثلاثاً وقيل خمساً وأهل قباء يقولون أن مسجدهم هو الذى أسس على التقوى

اول جمعة صلاها بالمدينه (١) وختمها بخطبة بليغة قال فيها بعد أن حمد الله واثنى عليه :

« أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين ، بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقي لايدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ؛ ومن الشيبة قبل الكبر ؛ ومن الحياة قبل الموت ، فوالذى نفس محمد بيده ، مابعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار ؛ الا الجنة أو النار »

وبعد أن قرأ خطبة أخرى ركب يريد المدينة وكان كلما حاذي أو مر على دار من دور الانصار اعترضوه ولزموا بزمام ناقته يقولون : هلم يارسول الله صلى الله عليه وسلم الى القوة والمنعة » فيقول لهم

ـ خلو سبيلها فانها مأمورة

وقد أرخي لها زمامها وما يحركها وهي تنظر يمينا وشمالا والناس حولها حتى بركت حيث بركت على باب مسجده ، ثم ثارت وهو عليها ، فسارت حتى بركت على باب أبي أيوب الانصارى ، ثم

(١) ورد فى كتب السير أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ موضع مصلاه مسجداً وسمي مسجد الجمعة

التفتت يميناً وشمالاً ثم ثارت وبركت فى مبركها الاول وألقت جرانها بالارض وأرزمت فنزل عنها وقال : هذا المنزل ان شاء الله تعالى

فاحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته . وعلى هذا الوجه الجميل أرضى الرسول جميعهم ولم يصدع خاطر أحدهم .

ولم يفرح أهل المدينه بشىء مقدار فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث صعد الرجال والنساء يوم قدومه فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون : جاء محمد . جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان قرب المنزل الذى نزل فيه رسول الكائنات قطعة أرض فضاء فشيد عليها مسجداً وابتنى فيه لنفسه المقدسة غرفاً وكان أهل المدينة اذ ذاك فى طوفان من السرور لايدعون سبيلا من السبل التى فيها مرضاته الا سلكوه فآخى بينهم وبين المهاجرين فآووهم فى منازلهم وقاسموهم فى أموالهم وآثروهم بأقواتهم وتلقوا المكاره دونهم وصار أحدهم أرأف بنزيله وأخيه فى الدين من أخيه فى النسب واتخذوا ذلك الاخاء والولاء لحمة وسبباً أعلى من كل سبب

بهذه النتيجة العظيمة ، وبهذه العاقبة الحميدة انتهت تلك الحادثه الخطيرة فى الاسلام . الهجرة

الفصل الثالث

(زفاف عائشة الصديقة رضى الله عنها)

عند ما وصل أهل ابى بكر الصديق رضى الله عنه الى المدينة ، نزلوا فى (بنى الحارث بن الخزرج) وفي الشهر الثامن من الهجرة النبوية ، قام الرسول ومعه جماعة من الانصار فشرف دار صديقه فى الغار ، ودخل على السيدة عائشة رضى الله عنها وقد كانت هذه الزوجة الثانية المباركة من أزواج النبي ، الصادق الوعد الامين ، صبية حسناء ذات نضارة ونضارة

واليك وصف حفلة زفافها من حديث لها قالت :

« تزوجنى النبي صلى الله عليه وسلم فأتتنى أمى وانى لفى أرجوحة ومعي صواحب لى فأتيتها لا أدرى ماتريد منى فأخذت بيدى فأوقفتني على باب الدار فاذا نسوة من الانصار فى البيت فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر فاسلمتني اليهن فأصلحن من شأني فلم يرعنى الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فاسلمتنى اليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » (١)

---

(١) روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبوداوود والنسائي وفي هذا الحديث معان كثيرة منها استحباب الدعاء بالخير والبركة لكل من

وكانت معهما فى الحجرة (اسماء بنت) عمر فحدثت تقول :

ـ لم يكن فى وليمة السيدة عائشه من الطعام سوى قليل من اللبن ، شرب الرسول بعضه ثم مديده الكريمة بالاناء الى عائشة فخجلت ولم تتناوله فقلت لها لاتردى مايعطيه لك النبي صلى الله عليه وسلم وشربت اسماء ما تبقى .

على هذا النحو من البساطة والصفاء وقلة الكلفة تم زواج النبي صلوات الله عليه وسلم من السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها فى الشهر الثامن من الهجرة .

كانت عائشة صبية صغيرة ذات ملامح جذابة وكانت فى عنفوان الصبي حتى أنها فى اوائل زواجها كانت لم تقطع بعد عن امهامع صواحب لها . وهى فى انعكافها على ألعابها وانشغالها بمرائسها واذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يدخل غرفتها على حين فجاه ، فاستحيين رفيقاتها وتوارين فى الحال أما السيدة عائشة فرمت عرائسها على الفراش وأسدلت عليهن مئزراً ، فلعب الهواء بالمئزر وظهرت أطراف اللعب فاقترب الرسول منها وسألها ما هذا ؟ فقالت :

ـ هى لعبى

الزوجين وفيه استحباب تنظيف العروس وزينتها لزوجها واجتماع النساء لذلك وفيه جواز الزفاف نهاراً (المعرب)

وسام مبتسماً .

وكانت أم المؤمنين عائشة، لبيبة فطنه، شاعرة، خطيبة يلقبها الرسول صلى الله عليه وسلم بالحميراء ، ويحبها محبة اكيدة، وكان من دواعي سروره صلى الله عليه وسلم أن يرضيها ويعمل مافيه سرورها، حتى توثقت محبته لها وازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر .

كان الرسول يصلح نعله ذات يوم وكان الحر قد بلغ اشده فتندى جبين الرسول وتلألأت قطرات العرق تتدحرج على خده . وكانت السيدة عائشة وهي تعجن الدقيق تشاهد هذا الحال بحيرة ووله فالتفت اليها الرسول يقول :

ـ ماذا دهاك ؟

فأجابت :

ـ لو رآك الشاعر عروة بن الزبير لكنت المعنى بقوله يارسول الله

فسألها اى قوله فأجابت حين يقول :

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده — لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد

لوامي زليخا لو رأين جبينه — لآثرن بالقطع القلوب على الايدى

فترك الرسول ما بيده وقام اليها يقبلها من عينيها وهو يقول ما معناه:

« قد سررتنى ، سرك الله ياعائشة »

وقال لها الرسول ذات يوم وهو جالس عندها (ما معناه) :

انني اعلم وقت غضبك منى حيث تقولين اذ تحلفين ورب ابراهيم « اما اذا كنت راضيه عني فتحلفين رب محمد » فاجابت انني يارسول الله اذا غضبت اغفلت اسمك وأماحبي لك فلا يتغير .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقضى اكثر اوقاته بجانب زوجته المحبوبة عائشة، وكان الناس املا فى الحصول على رضى الرسول يتحرون بهداياهم يوم عائشة وكان الوحي ينزل عليه صلى الله عليه وسلم، وهو بجانبها، فلذلك كانت السيدة عائشة تشاركه فى تأثراته النبوية اذ كانت واقفة على دقائق احواله وحركاته وكل شأن من شئونه .

وقد شكا زوجات النبي من تحرى المسلمين يوم عائشة لهداياهم فاجتمعن الى ام سلمة التى تقدمت بذلك الى الرسول ورجته أن يخطر الناس بذلك فقال لها :

ـ « لا تؤذونى فى عائشة فانه والله مانزل على الوحى وأنا فى لحاف أمرأة منكن غيرها »

لم تيأس أم سلمة من هذا الاخطار النبوى، بل عادت الى تحقيق أملها وتوسلت هذه المرة بفاطمة الزهراء التى جاءت الى ابيها تخبره بذلك الا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألها هل تحبين من أحبه ، فلما ردت عليه بالايجاب قال لها اذن أحبي عائشة

قد كانت لعائشة منزلة سامية فى نفسه حتى كان صلى الله

عليه وسلم يقول لزوجته الطاهرة أن حبه لها كالعروة الوثقى لا انفصام لها . فكانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر ، اطمئنانا على مكانة هذه المحبة فتقول: كيف حال العروة يارسول الله فيجيبها : إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل . وقد أثرت تعاليمه العالية فى نفسها الكريمة وجدت منبتا صالحا حتى تشرب قلبها النبيل مبادىء الزهد والقناعة فكان عروة بن الزبير يقول عنها :

«رأيتها تتصدق بسبعين الف درهم فى سبيل الله وهي فى قميص خلق» وأخرج ابن سعد من طريق أم درة قالت :

- « أتيت عائشة بمائة الف ففرقتها وهي يومئذ صائمة فقلت لها أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه فقالت لو كنت أذكرتني لفعلت »

* * *

للسيدة عائشة ميزة خاصة وشرف وجلال بين مخدرات العالم الاسلامى ، لم تتوفر لسواها من السيدات فقد كانت أديبة لبقة ، عالمة ، خطيبة ، شاعرة ، من أفقه الناس وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيا فى العامة . وعنها يقول عروة بن الزبير

«ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»

ياله من فخار تحوزه السيدة عائشة ، تلك التي استطاعت فى فترة كبيرة من حياة الرسول الشريفة ان تدخل عليه السرور والراحة

وتغمر قلبه بالغبطة والانس فكانت امام عينيه الشريفتين التمثال المجسم للسعادة. وما كان ينقصها فى حياتها تلك الا ان تكون اماثلا تحرم من التكنى باسم طفلها الا ان فخر الكائنات لم يدع سبيلا الى غمها من هذا القبيل فكناه بابن اختها عبد الله بن الزهير اذ كان قد درج فى البيت النبوى وشب بين احضان العائلة النبوية المطهرة .

افتتن الرسول بخصالها الممتازة فتعلق قلبه الطاهر بحبها حتى كان انس بن مالك يقول: «اول حب ظهر فى الاسلام حب الرسول صلى الله عليه وسلم وام المؤمنين عائشه» اما ام المؤمنين فكانت تتباهى بهذا الحب وتقول فضلت على نساء الرسول صلى الله عليه وسلم بعشر: فذكرت مجىء جبريل بصورتها، ثم قالت ولم ينكح بكراً غيرى ولا امرأة ابواها مهاجران غيرى، وانزل الله براءتى من السماء، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى وكنت اغتسل انا وهو من اناء واحد، وكان يصلى وانا معترضة بين يديه وقبض بين سحرى ونحرى فى بيتى وفى ليلتى، ودفن فى بيتى

كانت من احب خلق الله اليه هي وابيها الصديق . كيف لا وقد اضاءت حياة الرسول بعلمها وجمال نفسها حتى صارت الجوهرة اللامعة فى عقد تلك الايام السعيدة المباركة. لقد كانت تاج الفخار فى زمانها وخزينة السرور لسيد الكائنات فطوبى لتلك النفوس

العالية التي تترك اثراً من السعادة والانس والصفاء في محيطها التي تعيش فيه وفي الاحياء التي تشاركها والاشياء التي تلامسها ولقد تظل ذكرى تلك النفوس خالدة بعد زوال رسومها ، لتصور لنا جلال «الماضي» وتنفخ في صورة «الحال» روح الخيال .

الفصل الرابع

(حديث الافك)

فى هذا الحديث وما أنزل الله فى شأنه عظة وذكرى لقوم يعقلون

فرغ رسول الله صلى عليه وسلم من غزوة له مع قبيلة بنى المصطلق فى جهة (قدير) على مقربة من آبار (مريسيع) ، وكان معه من نسائه [1] السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها ، فلما قفلوا ودنوا من المدينة ، آذن الرسول ليلة بالرحيل وكانت السيدة عائشة محمولة فى هودج ، اذ كانت آية الحجاب قد نزلت . فقامت حين آذن بالرحيل ومشت لقضاء حاجة حتى جاوزت الجيش ، فلما قضت من شأنها أقبلت الى الرحل ولمست صدرها فاذا عقد لها من جزع (٢) قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها وحبسها ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بها ، فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركبه وهم يحسبون أنها فيه وكان

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه (المعرب)

(٢) بفتح الجيم وسكون الزاى خرز فيه سواد وبياض

النساء اذ ذاك خفافاً، فلم يستنكر القوم حين رفعوا ، خفة الهودج فاحتملوه وساروا ووجدت السيدة عائشة عقدها بعد ما استمر الجيش ، فجاءت منزلهم وليس فيه أحد وتيممت منزلها الذى كانت به وظنت أنهم سيفقدونها ويرجعون اليها ، فبينما هى جالسة غلبتها عيناها فنامت

وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها، فرأى سواد انسان نائم فاقترب منها وعرف أم المؤمنين حين رآها حيث كان يراها قبل نزول آية الحجاب ، فاستيقظت السيدة عائشة باسترجاعه حين عرفها، وخمرت وجهها بجلبابها ، فأفهمته حقيقة الامر فهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها وانطلق يقود بها الراحلة الى ان أتيا الجيش

هنا يبدأ حديث الافك ، وفى هذا الحادث أخذ أصحاب الافك يفيضون كما شاءت أهواؤهم السيئة وكان أشدهم نفاقاً وأكثرهم خوضاً ، عبد الله بن أبى سلول ومن الصحابة حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وغيرهم، وقد تداول الناس هذا الحديث وشاع فى الاندية حتى بلغ مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق رضى الله عنه وأم رومان والدة السيدة عائشة وكانت السيدة أم المؤمنين لم تشعر بعد بما يفيض فيه الناس حيث ما كادت تصل المدينة حتى لزمت فراشها لحمى أصابتها وقد رابها

فى وجهها أنها لا ترى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كانت تراه منه حين تشتكي انما كان يدخل فيسلم ثم يقول

- كيف تيكم[1] ؟ ثم ينصرف

كانت هذه المعاملة تريب السيدة أم المؤمنين ، ولا تشعر بالشر حتى نقهت ، فخرجت هي وأم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزهم وكانوا لا يخرجون الا ليلا وذلك قبل اتخاذ الكنف قريبا من البيوت ، فأقبلت هي وأم مسطح حين فرغا من شأنهما يمشيان ، فعثرت ام مسطح فى مرطها فقالت

- تعس مسطح . فقالت لها السيدة عائشة

- بئس ماقلت أتسبين رجلا شهد بدرا

فقالت :

- ياهنتاه ألم تسمعي ماقال ؟

فسألتها السيدة عائشة ماقال . فأخبرتها بقول أهل الافك فازدادت مرضا على مرضها ولما رجعت الى البيت ودخل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لها كعادته

- كيف تيكم .

قالت له :

- أتأذن لى ان آتى ابوى

---

(١) تيكم بكسر الفوقية إشارة الى المؤنث مثل (ذلكم) المذكر

فأذن لها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما أتت الى بيت أبيها قالت وهي ترتعد :

ـ يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به

فقالت :

ـ يا بنية هوني على نفسك الشأن ، فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها .

فقالت :

ـ سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟

ثم بكت السيدة عائشه تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وكان ابو بكر رضي الله عنه اذ ذاك في في الطابق الاعلى مشغولا بتلاوة القرآن فما كاد يسمع بكاء ابنته ونوحها حتى نزل اليها وطيب خاطرها قائلا :

ـ صبراً يا بنية عسى أن ينزل الله في شأنك آية

وقد زاد من حيرتها كتمان الامر عنها ، فازداد مرضها حتى أصبحت لا تستطيع القيام من فراشها .

ولما بلغ الامر الى رسول الله عقد مجلساً من أهله وأصحابه المقربين ، يستشيرهم ، وكان بينهم (علي بن أبي طالب) و (أسامه بن زيد) وسيدنا عمر وعثمان وغيرهما من كبار قريش وبعض السيدات ، وكان من عادة الرسول أن يعقد مثل هذه المجالس

العائلية كلما قضت الضرورة بذلك . فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال :

ـ هم أهلك يارسول الله ولا نعلم بهم والله الا خيراً

واما على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال :

ـ يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال

ـ أى بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟

فقالت له بريرة

ـ لا والذى بعثك بالحق نبياً ان رأيت منها امراً أغمصه[1] عليها اكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن[2] فتأكله

أما سيدنا عمر الفاروق فقد أجاب بوقار ورزانة ما معناه أن الرسول قد تزوج عائشة بأمر الله وأنه لا يريبه شىء من عائشة وقال عثمان ان هذه الاشاعة من اعمال المنافقين وانه لا يصدق شيئا من ذلك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول فقال وهو على المنبر :

---

(١) أغمصه بفتح الهمزة وكسر الميم وبالصاد المهملة أى أعيبها به

(٢) الداجن بالمهملة والجيم الشاة التي تألف البيوت ولا يخرج الى المرعى

« من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت في أهلي الا خيراً ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه شراً وما كان يدخل على أهلي الا معي »

فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الاشهل فقال

ـ يارسول الله أنا والله أعذرك منه . ان كان من الاوس ضربنا عنقه وان كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ :

ـ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد ، فقال معاذ لسعد بن عبادة :

ـ كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين .

وتبادر الحيان ، الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

ولما وصل الخبر الى السيدة عائشة بكت يومها ذلك ، لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ثم بكت ليلتها المقبلة فأصبح عندها أبواها وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى ظننت ان البكاء فالق كبدها

وبينما أبواها عندها وهي تبكى إذ استأذنت امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكى معها، وبينما هم على تلك الحال ، إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم ثم جلس ولم يجلس عندها من يوم قيل لها ماقيل وقد مكث شهراً لا يوحى اليه فى شأنها بشيء فتشهد رسول الله حين جلس ثم قال :

ـ أما بعد ياعائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته استقصى دمعها لاستعظام ما بغتها من الكلام وقالت لأبيها .

ـ أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال .

قال أبوها :

ـ والله ما ادرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم

فالتفتت لأمها تقول مثل قولها لابيها فأجابتها كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فالتفتت اذ ذاك السيدة عائشة وأجابت بقولها

ـ إنى والله لقد علمت انكم سمعتم ما تحدث الناس به حتى استقر فى نفسكم وصدقتم به فلئن قلت انى بريئة والله يعلم انى لبريئة لا تصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى

منه بريئة لتصدقني فوالله ما أجد لى ولكم مثلا الا أبا يوسف «اذ قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»

وبعد ان أتمت مقالتها تحولت فاضطجعت على فراشها وهى تعلم انها بريئة وان الله مبرئها ببرائتها وقد حدث ما كانت ترجوه فان الرسول صلى الله عليه وسلم ما فارق مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى انزل الله عليه الوحي ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (١) حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان (٢) من العرق في يوم شات (٣) من ثقل القول الذى أنزل عليه ، ثم سرى عنه وهو يضحك . فكان أول كلمة تكلم بها أن قال :

ـ ابشرى ياعائشة اما الله فقد برأك

فقالت لها أمها قومى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابت

ـ لا والله لا أقوم ولا أحمد الا الله هو الذى أنزل براءتى

وكان ماأنزله الله عز وجل . «ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم» العشر الآيات من سورة النور فى براءة السيدة عائشة وقد أراد الرسول صلوات الله عليه أن يأخذ بيد عائشة ، الا انها رفضت محتدة ، حتى انتهرها ابو بكر والدهاء اما الرسول فسار من وقته الى المسجد وجمع اصحابه الكرام وقرأ عليهم خطبة جامعة وتلا عقبها سورة النور

---

(١) الشده والضيق (٢) اللؤلؤ (٣) شدة البرد

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينفق على «مسطح بن أثاثه» لقرابته منه وفقره . فقال . والله لا انفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشه ما قال فأنزل الله تعالى . «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة» الى قوله «غفور رحيم» فقال ابو بكر

- بلى اني والله لأحب ان يغفر الله لى

فأرجع الى مسطح ماكان ينفقه عليه . وجمع الرسول عقب نزول آية البراءة أصحاب الافك وأمر بحدهم للقذف .

* * *

قد سبب عقد السيدة عائشة هذا ، قيلا وقالا ، حتى لم يبق أحد لا يعرف قصة هذا العقد المكون من احجار اليمن ، وكانت أم المؤمنين عائدة مع رجال الجيش من غزوة اخري فنزلوا في موقع قريب من المدينة يدعى (صاصل) ففقدت عقدها مرة ثانية فاهتم الرسول بالامر وأوقف جميع القافلة للتحرى عنه ، مع أنهم كانوا في موقع قاحل لا ماء فيه ولا نبات، فعطش رجال الجيش ولم يجدوا ماء للوضوء ولحقهم كرب شديد وقد بحثوا كثيراً دون جدوى حتى اضطروا للقيام الا ان أم المؤمنين عثرت عليه تحت راحلتها [١] فغضب رجال القافلة وشكوا مالحقهم من الضر الى أبيها ابي بكر الصديق رضى الله عنه . فاستفزته الحمية وقام من

---

(١) السيرة الحلبية

فوره يقصد بيت الرسول لينهر ابنته وليضع حداً لحوادث العقد، تلك الحوادث التي تتكرر وتوجب الاضطراب . وما كاد يصل حيث يريد حتى وجد الرسول نائماً على ركبة ابنته أم المؤمنين فاقترب منها وبادرها بالتوبيخ وقارص الكلام وهي ساكتة : لا تبدي ولا تعيد، احتراماً للرسول صلوات الله عليه وسلم وهو في تلك الحالة . إلا ان الرسول سرعان ما بشر ابا بكر بنزول آية التيمم وعندما تلاها على أصحابه الكرام علموا أن السبب في نزولها هو أبو بكر رضي الله عنه .

من أحب انساناً أحب حبيبه. فكم جيداً زينت تلك العقود المصنوعة من جزع اليمين ! . ولكنها كانت أمتعة للزينة ، ليس لها أثر من ذكرى التاريخ، فظلت مهملة الذكر في صحائف الحوادث

قد تكون للحلي أيضاً درجات من الميزة بقدر ما يكون للتأثرات والمشاعر من الاهمية بالنسبة لموقع اصحابها في الحياة ان حوادث ايا منالها من الأهمية والمكانة بقدر الاهتمام الذي يبذله اصحاب هذه الحوادث نحوها . فعقد السيدة عائشة كان حلية ذات قيمة بقدر امتياز السيدة نفسها وخطرها في الحياة والا لما كان شغل صفحة كبيرة من التاريخ الاسلامي

الفصل الخامس

(حجة الوداع)

قد زال ما كان بين الرسول وزوجته من الجفاء بسبب حادثة العقد، فعاشا في انس عميق وراحة حقيقية . كانت السيدة عائشة الانيس الوحيد لروح الرسول فلم يفتور حبه لها ادنى شائبة في وقت من الاوقات . لم تبد سحابة واحدة في سماء سعادتها ، منذ السنة السادسة حتى الحادية عشر من الهجرة لقد وقفت حياتها في سبيل الرسول وبذلت ذات نفسها وذات مالها في طريق الدين وفي سبيل ايصاله الى درجة الكمال

اما الاسلام فكان آخذاً في الانتشار والشيوع بسرعة مدهشة محيرة للعقول . وكما ان الزهرة الطيبة التي يتعهدها المرء بالتربية في ارض خصبة لا تلبث ان يعبق اريجها العطر مع الريح ، كذلك الاسلام كان يذيع ويشيع فيمتد في الممالك والأمصار ويستولى على القلوب فيشتد نفوذاً وتشبثاً يوماً بعد يوم .

كان لأريجه اثر سحرى ، يجذب القلوب ويأسر النفوس ، فيكبلها بروابط وثيقة لا ينفصم عراها . فأخذ عدد الاتباع يزداد بسرعة تفوق حد الوصف وخاضوا غمار غزوات عديدة في سبيل

تأييد كلمة الله ، خرجوا منها ظافرين غانمين تخفق فوق رؤوسهم ألوية النصر

رسخت عقيدة الاسلام فى تلك القلوب الصافية وقوى ايمانهم فاندفعوا بقوته الى الأمام يحطمون ما يعترض سبيلهم من حواجز وموانع

ووقفت المدنيات القديمة حيرى، أمام هذه العقيدة الجديدة ، لاتبدى ولا تعيد ، ثم مالبثت أن طأطأت لها الرأس ومدت لها يد الاخلاص والأمان . كان التيار جارفا فلم يستطع أن يقاومه الا القليلون

فى مثل هذا العهد الزاهر من الدعوة الاسلامية، أى فى السنة العاشرة من هجرة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، أعلن الهادى ، فخر الكائنات أتباعه أنه سيزور مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فتوافدت القبائل والعشائر من الجهات زرافات ووحدانا على المدينة المنورة ، ينتظرون اليوم الموعود . ولأيام قلائل خلون من ذى الحجة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى الطريق بعد صلاة الظهر ومعه أهل بيته وأصحابه وأربعون ألفا من حجاج المسلمين ، فوصل مع هذا الجمع الحاشد الى مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجة وبعد أن ابتهل الرسول صلى الله عليه وسلم الى ربه وطلب المغفرة وحسن المآب تقدمت اليه القبائل الوافدة من

الجوار الأخرى فأدوا الجميع فريضة الحج

لاحظ الرسول أثناء سفره أن البعير الذي يحمل هودج السيدة عائشة يسير بسرعة كبيرة لخفة جسمها ولقلة أحمالها ، بينما كان البعير الحامل لزوجه الأخرى السيدة صفية ، يسير ببطء وهوادة لسمنها ولكثرة أحمالها فأمر الرسول بأن ينقل حمل السيدة عائشة الى رحل السيدة صفية وأحمال هذه الى رحل الأخرى جاء الى عائشة يستسمحها لهذا العمل فغضبت من ذلك وأجابته بكلمات قاسية فلم يجاوبها الرسول الا أن الحادثة وصلت مسامع أبي بكر فهرول نحو ابنته وصفع خدها فما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يرى هذه المعاملة القاسية حتى آخذ صديقه فأجابه ألم تسمع ما قالته لك فأفهمه فخر الكائنات أن الذي دفعها الى ذلك هو غيرتها وأن المرأة اذا غارت لاتدرى ماتقوله بل تكيل القول جزافا . وكان يوم عرفات يوم الجمعة فأدى الرسول فريضة الحج مع مائة الف ونيف من المسلمين وعقب الصلاة خطبهم هذه الخطبة البليغة :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلاهادى له . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها

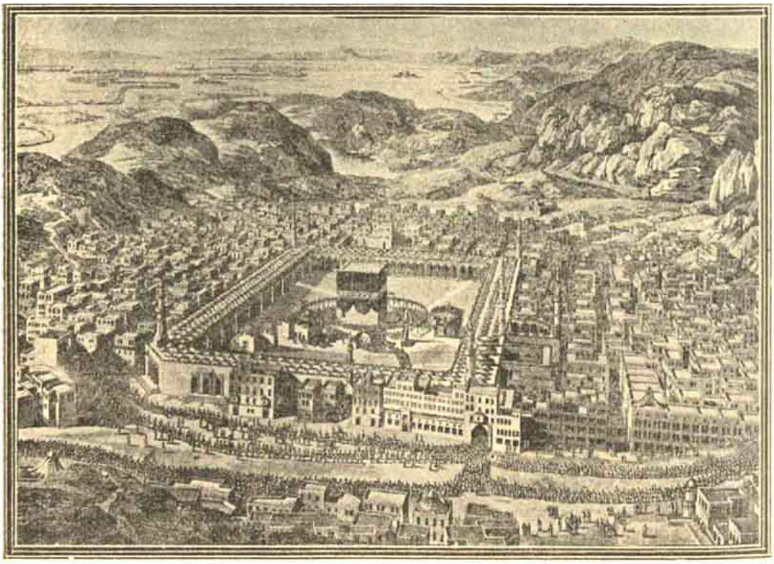

مكة المكرمة

الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فاني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هـذا ، في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وأن ربا الجاهلية موضوع ، وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . وأن دماء الجاهلية موضوعة وأن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة أو السقاية . والعمد قود (١) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض . وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض ، منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت اللهم أشهد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم

---

(١) القود القصاص ، أى القاتل عمدا يقتل

عليهن حق : لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً الا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما إن اخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ربكم واحد وان اباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمى فضل الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله »

***

قد استمع جمع حاشد من المؤمنين هذه الخطبة وكان عددهم كبيراً ، فلا يصل صوته المبارك الى جميعهم فأخذ ربيعة بن امية أحد أصحابه الكرام ، يكررها عليهم بصوت جهير

وبعد الانتهاء من الخطبة أذن بلال ثم أقام صلوات الله عليه وسلم الصلاة وصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر وفى مساء ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً . » . قالوا ولما نزلت هذه الآية علم أبو بكر بقرب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فبكى .

وبعد أن خطب الناس وألقى على جماعة المسلمين نصائح عديدة سواء أفي مكة أم فى طريقه الى المدينة أنبأهم صلى الله عليه وسلم وهو فى موقع قريب من المدينة بقرب صعوده الى الرفيق الاعلى وعند وصوله الى المدينة ، مرض الرسول مرض الموت وأول ذلك أنه خرج من جوف الليل الي البقيع فدعا للأموات واستغفر وتضرع كالمودع وأصبح مريضا من يومه .

ولما رجع من البقيع وجد السيدة عائشة تتوجع من صداع ألم برأسها وهى تقول :

- « وارأساه : »

فقال لها الرسول :

- ذاك لو كان وأناحي فاستغفر لك وأدعو لك

فقالت :

ـ واثكلناه والله انى لأظنك تحب موتى ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك

فابتسم الرسول وبذلك تمكنت من ادخال بعض السرور على قلبه .

وكان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فكان يدخل يديه للماء فيمسح بها وجهه

كان الرسول هادئا ساكنا فى أشد أوقات مرضه ، ينام باهتا مغمضاً ثم لا يلبث أن يفتح عينيه الشريفتين فيدعو ويستغفر وكانت السيدة عائشة تلازمه على الدوام ولا تفارقه لحظة واحدة وكان وهو على ركبتها يسمع بلالا مؤذناً للصلاة فيقوم بقدر جهده وطاقته يصلى بالناس ولما اشتد عليه وطأة المرض ، وكان ذلك قبل وفاته بثلاثة أيام ، عجز عن الخروج الى الصلاة واجتمع الناس فى المسجد وأذنوه بها فهم بالخروج فعجز فقال : (مروا أبا بكر فليصل بالناس) فصلى بهم أبو بكر رضى الله عنه حتى اذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول والمؤمنون صفوف فى الصلاة كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم ستره الحجرة فنظر اليهم وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم ضاحكا فبهت الصحابة وهم فى الصلاة من شدة ما نالهم من الفرح بخروج رسول الله صلى الله

عليه وسلم ونكص ابو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن الرسول خارج للصلاة فأشار اليهم بيده الكريمة أن أتموا صلاتكم ، وعند ما دخل الرسول صلى الله عليه حجرة عائشة في يومه ذلك نام متمددا واضعا رأسه الشريفة على فخذها ولما جاءه جبريل يستأذن في دخول عزرائيل عليهما السلام غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الاعلى فأتم الملك أمر ربه ورفع تلك الروح العالية الى أعلى عليين ، حيث الرفيق الاعلى وهي في حضن زوجه ام المؤمنين وما كادت تشعر بذلك حتى أجهشت في البكاء .

الفصل السادس

عند ماتوفى رسول الله صلى عليه وسلم ، كانت أم المؤمنين عائشة فى الثامنة عشرة من سنى حياتها ، فانزوت فى كسر دارها مع جواريها تقطع مراحل العمر فى هدوء وسكون وتفنى دقائق الحياة في تلاوة القرآن وعبادة الديان .

كانت على جانب كبير من الذكاء ، تلم بمسائل كثيرة من الفقه كما أنها على نصيب وافر من سائر العلوم كانت أحب زوجات الرسول وقضت معه شطرا كبيراً من الحياة فلاغرو اذا وعت فى حافظتها ما كانت تسمعه وتراه من ضروب الاحكام الدينية والمعاملات الشرعية ولا عجب اذا رأينا الصحابة وعيون الانصار يتخذونها المرجع فى أحكام الدين ومسائل الشرع الشريف ، وقد ضربت بسهم وافر في الفتاوى الشرعية ، فكانت اذا ذكرت أمام (عطاء بن أبى رباح) قال

« كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة » وعنها يقول عروة : « مارأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة »

بلغت الاحاديث التى روتها السيدة عائشة ألفين ومائتين

حديثاً وعشر . من ذلك مائة وسبعون حديثاً أجمع الاتفاق عليه وأخذ منها البخارى أربعة وخمسين حديثاً

أما فضلها وحسن رأيها فيكفى أنها كانت المرجع لأمثال عمر ومن اليه من فحول الصحابة أما فصاحتها فيكفى أن يزكيها مثل معاوية بقوله « لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشـة » وقال بن قيس : « سمعت أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان بن عفان فلم أجد في أقوالهم الجزالة والعذوبة التى تترقرق فى كلام عائشة » وكانت تروى الشعر وتعلم وقائع العرب وحروبهم وسيرهم حتي أنه ما كان ينزل بها شيء الا أنشدت فيه شعرا . وفى حديث للنبي صلى الله عليه وسلم عن أبي موسي أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وعند ما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت المال فى زمان خلافته وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول صلي الله عليه وسلم فكان يعطى كل واحدة منهن عشرة آلاف درهم الا عائشة ، فقد جعل لها اثنى عشر ألفا . وقد عارض بعض الناس فى هذا الامتياز الصادر من رجل العدل عمر ، دون أن يفهموا الغرض منه وسألوه عن السبب فأجابهم : « ذلك لأن عائشة كانت محبوبة الرسول »

أما هى فكانت تبذل مالديها من مال ونشب فى وجوه البر والخير وتهوين حاجات أهل العوز والمساكين ، وفى سبيل اعلاء

كلمة الدين

كانت تزور الكعبة فى كل عام ثم تعود الى المدينة فهذه الزيارات التى دامت الى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة هى فترات الحركة فى حياتها الساكنة فقد مضت أيام حياتها على نسق واحد من النظر فى شئون الخير والاحسان ومن التفرغ الى العبادات وحل ما يستعصى على المسلمين من الاحكام والمعاملات

كان لأهل المدينة عاطفة حب شديد واحترام عميق نحو شخصها المحبوب اذ كانوا يقدرون ذكاءها ويباهون بحسن رأيها ويرون فى زوجة الرسول المعززة بين ظهرانيهم، الذكرى الخالدة التى تذكرهم بأيام السعادة

الفصل السابع

(وقعة الجمل)

كانت عائشة (رضى الله عنها) قد خرجت من المدينة الى مكة ، ليالى حوصر عثمان بن عفان ، ثم رجعت من مكة الى المدينة . فلقيها فى الطريق ، عند موقع يقال له (السرف) بعض أولاد خالها ، وهو عبيد بن أبى سلمة ، فقالت له

ـ ماوراءك ؟

فقال :

ـ قتل عثمان .

قالت :

ـ فماصنع الناس بعده ؟

أجاب :

ـ بايعوا علياً

قالت

ـ ليت هذه انطبقت على هذه ، ان تم الامر لصاحبك

ثم رجعت الى مكة وهى تقول

ـ قتل عثمان والله مظلوما والله لأطلبن بدمه

فقال لها الرجل

ـ لا والله ، ان أول من أمال حروفه لأنت ! والله لقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر [1]

فقالت

ـ انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الاخير خير من قولي الاول [2]

ولما رجعت الى مكة ذهبت تواً الى الحجر الاسود وجمعت الناس وخطبتهم تقول : « أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المسكين يعني عثمان — فقتلوه ظلما وعدوانا ، فسفكوا الدم الحرام ، في البلد الحرام ، في الشهر الحرام » الخ وعقب ذلك قام (عبد الله بن عامر الحضرمي) الوالي المعين من قبل عثمان على مكة فحلف بأن يطيعها وركبت جملها المشهور باسم (عسكر) ، وقد التف حولها بضع آلاف ، تريد البصرة وكان معها من الصحابة الكرام ، الزبير وطلحة وقد كانت عائشة (رضي الله عنها) في توجهها الى البصرة ، اجتازت بماء يقال له (الحوأب) فنبحتها كلابه ، فقالت للدليل

ـ ما اسم هذا الموضع

---

(١) كان ذلك لقبا لعثمان بن عفان

(٢) الفخرى

قال :

- الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

- ردونى ، انا لله وانا اليه راجعون ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند نسائه أيتكن تنبحها كلاب الحوأب

ثم عزمت على الرجوع فقالوا لها : إن الدليل كذب ولم يعرف الموضع و بعد يوم وليلة وصلوا الى البصرة بعد أن بذلوا جهدا كبيرا فى اقناع السيدة عائشة وسوقها الى البصرة وعند ماوصلوا الى مقربة منها فى موقع يقال له المربط خرج الى مقابلتها الناس فخطبتهم خطبة بليغة أفهمتهم فيها بقتل عثمان ظلما وحثتهم على طلب دمائه وختمت الخطبة بقوله تعالى « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله » فأثرت هذه الخطبة البليغة فى نفوس الكثيرين وتبعها عدد كبير من اهل البصرة حتى بلغ عدة جيشها ثلاثين الفا فلما انتهى ذلك الى امير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، قام فخطب الناس وأعلمهم الحال وقال : انها فتنة وسأمسك الامر ما استمسك بيدى . ثم بلغه ماهم فيه من الجموع والتصميم على الحرب فنهد اليهم فى جيش من المهاجرين والانصار . وكان معه من أهل المدينة اربعة آلاف : ثمانمائة منهم من الانصار واربعمائة من الذين بايعوه تحت الشجرة المشهورة .

وكان اكثر اهل البصرة مع جيش عائشة . فالتقى الجمعان بظاهر

البصرة فى مكان يسمى (الخريبة) وجرت خطوب وحروب ، ففى بعضها التقى على كرم الله وجهه والزبير فقال له :

ـ يازبير ما أخرجك ؟

قال:

ـ أنت ولا أراك أهلا لهذا الامر

فقال سيدنا على:

ـ أتذكر لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقاتلنه وأنت ظالم

قال:

ـ اللهم نعم ولو ذكرت لما سرت مسيري هذا. ووالله لا أقاتلك ابداً

ثم انصرف عازما على ترك الحرب ولكن قابله للأسف في الطريق رجل يدعى (عمير بن جرموز) فقتله وأتى عليا برأسه فغضب لذلك وقال :

ـ بشر قاتل الزبير بالنار .

وتقابل سيدنا على مع طلحة ايضا فقال له :

ـ ياطلحة تطلب بدم عثمان ؟ فلعن الله قتلة عثمان اما بايعتنى ؟

قال :

ـ بايعتك والسيف على عنقى .

ولما تراءى الجمعان كان عسكر عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم ، عشرين الفاء تقبل أن تنشب الحرب، وعظهم أمير المؤمنين

وندبهم الى الصلح وبذل لهم كل ماليس عليه غضاضة من جهة الدين فمالوا الى الصلح شيئا وباتوا على ذلك ولكنه نشب القتال بين القبيلتين فى الغداة ودامت الحرب يوماً وليلة وأصاب سهم عائر رجل طلحة فأعطبه ، فدخل البصره رديفا لغلامه وقد امتلأ خفه دماً فمات من النزيف بدار خربة من دور البصر وقبره اليوم بالبصرة فى مشهد محترم عندهم (١)

وأما عائشة رضى الله عنها فانها كانت على جمل فى هودج وقد ألبس هودجها الدرع والنسائج الحديد وهى تراقب حركة القتال وقد ترامي جندها على الموت ، حياطة لها ، وذياداً عنها حتى لقد قتل حولها المئات والألوف وقطعت على زمام هودجها سبعمائة يد وكلما نزعت عنه كف نزعت اليه أخرى وكانت خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال حتى كأنه القنفذ ، وما أصاب قوائمه من السيوف . وقد ظلت السيدة عائشة في محفتها حتى المساء وقد وضع فى مكان بعيد عن الناس . وكان اخوها ـ محمد بن ابى بكر ـ من أصحاب على كرم الله وجهه فأمره ان يمضى الى أخته وينظر هل هي سليمة ثم ادخلها ليلا الى البصرة فى دار عبد الله بن خلف وظلت هناك حتى بدء شهر رجب بأمر الامام على وقد أحسن اليها كرم الله وجهه غاية الاحسان ، وجهزها بكل ما ينبغي لمثلها ، واذن لها

---

(١) تاريخ ابن الوردى

بالرجوع واختار لها اربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مؤانستها فى الطريق وسيرها صحبة اخيها ـ محمد بن أبى بكر مكرمة وقد شيعها ولدا الامام ـ الحسن والحسين رضى الله عنهما فلما كان يوم رحيلها ، حضر الامام وحضر الناس فقالت عائشة رضى الله عنها »

« يا بنى [1] » لا يعتب بعض على بعض انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم ، الا مايكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه على معتبتى لمن الاخيار » وقال على كرم الله :

« صدقت والله . ما كان بينى و بينها الا ذاك ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة »

ثم سارت وشيعها الامام أميالا . وتوجهت هى الى مكة واقامت بها الى ايام الحج وانصرفت الى المدينة

---

(١) وانما قالت ذلك لان نساء النبي هن أمهات المؤمنين

الفصل الثامن

لو استثنيا وقعة الجمل لرأينا أن السيدة أم المؤمنين قطعت المرحلة الطويلة من الحياة - من السنة العاشرة للهجرة الى الثامنة والخمسين منها - فى العبادة وتلاوة القرآن والتضرع وفي وجوه البر والمواساة ورواية الأحاديث وتخريج المسائل الفقهية .

على هذا المنوال البديع وسارت السيدة عائشة فى حياتها الجميلة ، تلك الحياة التى وقفتها على سبيل اعلاء كلمة الله . من أجل ذلك أحبها الناس ومن أجل ذلك كان يتباهى بها أهل مكة ويفتخر بشخصها الكريم أهل المدينة .

أقر علماء زمانها وفحول الرجال من معاصريها نبوغها وتفوقها حتى ذاعت شهرتها فى الممالك والأمصار

صفحة حياتها الخالدة ، تلك الصفحة المشرقة من صفحات الاسلام انتهت وقائعها فى العام الثامن والخمسين من الهجرة .

وكانت وصيتها عندماوافاها القدر المحتوم أن ينزلها (ذكوان) مولاها فى قبرها ثم يعتق نظير هذه الخدمة

وما كادت تلك الروح الشريفة تصعد الى بارئها ، حتى علا النحيب واشتد بكاء من فى الدار ، فأرسلت أم سلمة جارية لها تستوضح الامر وما كادت تنقلب اليها بالخبر المشئوم حتى بكت

هي أيضاً ثم قالت : « كانت عائشة من أحب الناس الى الرسول بعد أبيها الصديق »

توفت الى رحمة ربها فى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرم ودفنت فى تلك الليلة ومشى جميع أهل المدينة فى جنازتها وقد صلى عليها أبوهريرة رضى الله عنه أما الذين نزلو قبرها فهم عبدالله وقاسم ولدا محمد بن ابو بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، وعروة وعبد الله ولدا الزبير رضى الله عنهم

ماتت هذه السيدة الفاضلة عن ، خدمات جليلة وحسنات شهيرة حبيتها الى الامة الاسلامية فخلفت العالم وراءها فى ظلام دامس لامثيل له ..

شعر أهل المدينة بعظيم رزئهم وجليل خطبهم كما أحسوا بيتم حالهم بعد أفول تلك النجمة العالية من بينهم ، فبكاها الكل، بكاها الرجال قبل النساء ، والشيوخ قبل الشباب إذ كانت قد شملتهم جميعاً باردية فضلها وأغطية برها وخيراتها .

ان المخدرات الاسلامية في تلك الازمان السعيدة أى ، من بدء عهد الاسلام ، كن قدار تقين الى مستوى عصرهن الراقى فوهبن أنفسهن العالية الى اعمال الخير والفضل حتى النفس الاخير ، فكان عمر احداهن عصر قائم بنفسه، وترجمة حياة الواحدة منهن صفحة جليلة من صفحات التاريخ . ولقد سطعن فى سمائه ببهجة وايناس

كما كن الشهب الثاقبة فى سماء الاسلام فى العهد القصير الذى تلألأت فيه أنوارهن الباهرة .

لاحت أنوارهن زمنا قصيرا فى سماء الاسلام شأن كواكب الاسحار ، الا اننا مازلنا نلمس آثار وميضهن فى طيات الصحف . وهذا مايبعث فينا الامل والسرور . فها نحن أولاء نبدأ اليوم ، بفضل تلك الانوار ، والاسلام فى محنته وقتامه ، علؤنا الشعور والامل بأن نخلف بعدنا صحائف خالدة مثل صحائفهن ؟

- ٣ -

العباسة بنت المهدى

الفصل الاول

اى قارئى العزيز

لو سرحت الطرف فى حدائق الادب الافرنجى، مفكراً في أشعارهم العالية ، مدققاً النظر في آدابهم النفيسة ومؤلفاتهم القيمة وما يتخللها من مزايا وما آثر وما تتضمنها من درر الفاظ وغوالى حكم ، ممتعاً نفسك بعبير الذكريات القديمة المتضوعة من جوانبها تعلم وتشعر بأن لكل أمة من الامم وقائع خاصة بها ، وحوادث اشتهرت عنها تتمشى مع طبيعتها الشعرية وتمتزج بحالتها الروحية

تصقل الايام والعصور تلك الصفحات المشرقة الماضية والحوادث المفجعة والوقائع المؤلمة فلا تصل أسماعنا إلا وقد ازدادت روعة وجمالا فنصغى اليها بشيء من الدهشة تتملك نفوسنا

اننا نعجب من أبهة تلك الوقائع وندرة ما فيها من الشخصيات ، فنشعر بلذة معنوية تبطن أعماق نفوسنا ، فنغوص لجتها بارتياح ولذة

من الذى يصورلنا تلك الوقائع وينفخ الروح في اشخاصها فيصيرها خالدة لا تزول مدى الدهر ولا تمحى أبد الآبدين ؟ هم أهل الفن وأرباب الخيالات هم الشعراء والادباء ؛ فالكاتب بقلمه والمصور بريشته ، والحفار بمثقبه ، والموسيقى بالحانه والشاعر

بأوزانه يخرجون لنا صوراً حية بارزة من تلكم الحوادث المؤلمة والوقائع المدهشة ، لا نكاد نراها أو نسمع بها أو نلمسها فى صورهم وآثارهم وأقوالهم حتى تسيل نفوسنا رقة ، وتخفق قلوبنا شفقة ، على أبطالها الذين تذهب نفوسهم ضحية على مذهب الشهوات والمطامع

الفن ، هو الذى يجعلنا نفتتن بتلك النواصى الحزينة الحلوة. الفن ، هو الذى يصيرنا نعتقد بأن لهذه الشخصيات جمالا نادراً مقطوع القرين ، فننجذب الى قصص حياتهم المملوءة بالاعاجيب وطالما نأتلف بهم نحن اليهم ونحبهم . اما أسماؤهم الاعجمية فهى كالتماثيل الغريبة فى طريق لغتنا الاصلية وموقعهم الممتاز فى تلك الحوادث ، له أثر بليغ فى نفوسنا ولذلك لا نكاد نذكرهم إلا بشيء من اللوعة بين الآهات والزفرات

فتنتنا الآداب الغربية فسرنا مع تيارها وأصبحنا نقلد كل أساليبها فهل اصبنا المرمى ؟

لو وقفنا عند حد ترجمة ونقل الموضوعات التى تنقصنا والتى تغرينا على نشر العلوم والمعارف بين ظهرانينا وتأخذ بيدنا الى مناهج الرقى والفلاح ، لو وقف بنا الامر عند هذا الحد ، لكان عملنا صالحاً وسعينا جميلا ولكن الاذواق الغربية استولت على مشاعرنا واحساسنا وارواحنا فنسينا ما يحيط شخصيتنا من لطف

وظرف وبذلنا ما فى وسعنا من ارادة وعزم للتشبه بالفرنجة حتى تخدرت اعصابنا بعدوى مرض (الپانورزيزم) أى التقليد الاعمى وليتنا استطعنا ان نروى ظمأنا أو ليتنا نفكر فى الزمن الذى نضيعه هباء فى سبيل الوصول الى هذه الغاية

لو رجعنا البصر كرة واحدة الى ماضينا المجيد، ذلك الماضى المشرق بأنوار المجد والفخار، لعلمنا مقدار خطئنا ولأسفنا من استخراج معلوماتنا من دفائن الادب الغربى فحسب

خزائن آثارنا الشرقية مملوءة بالكنوز والنفائس التى تبهر الابصار ببريق لمعانها واشراق ضيائها. فى زوايا تلك الخزائن بذور مواهب كامنة لا يمكن للغرب أن يجود بها على الشرق يوما من الأيام. لو نظرنا اليها وأعرناها جانبا من العناية والالتفات لكنا الآن أصحاب ثروة قومية حفظها لنا الجدود بالمتاعب والآلام..

فقل لى بربك أما ترى أن فيما تركه لنا السلف خيرا مما نستعيره من الغرب عندنا من الكنوز شىء كثير: أموال ومجوهرات خالصة من كل غش وخداع عليها طابع الاسلام لم تمسها الأيدى ولم تنظرها الاعين حتى الآن

لو أردنا لاستطعنا ان نحيك لانفسنا جلابيب مهفهفة من تلك الأنسجة الحريرية النادرة. ولو شئنا لجعلنا تلك الاقمشه الثمينة ملابس تمشى مع الطراز العصرى ولو شئنا لكسونا تلك المخلفات

القديمة أحسن الصور والاشكال التى تجعلها من أجمل صناعات اليوم وبذلك لعقدلا نفسنا ألوية الظفر والفخار فى ميادين الفن. إننا لو أردنا لاستفدنا من شخصيات عديدة ووقائع كثيرة ذات أثر كبير فكل الادوار الاسلامية مملوءة بالحوادث العظيمة وقد اشتهر كل عصر من عصور تلك الادوار بأسماء ابطال يحركون فى النفس عوامل الشفقة والاعجاب

إن فى سلسلة الحوادث المفجعة التى تمت أيام الرشيد وانتهت بموت العباسة وختمت بمأساة البرامكة ، لعبراً تزري بأشعار (روميو) ومايتخللها من حب وصداقة ، وعظات تطفىء مايتخلل قصة (جوليت) من أنوار الاخلاص والوفاء . لم لاتتناول الاقلام هذه القصة ؟ إن هذين القلبين الوفيين ، قلب جعفر وقلب العباسة ، ليستحقان التصوير والتحليل ، فلم لم تلاق حادثتهما الاهتمام اللائق بها ؟ هل كانت حياتهما الشاذة ، تلك الحياة التى ذهبت ضحيـة الغرور والاستبداد . موضوعاً تافها فى آثارنا القومية ؟ . .

الخطأ الكبير الذى ترتكبه الرؤس الكبيرة أقل أثراً من النتائج السيئة التى يولدها الخطأ نفسه . فاذا كان الخطأ شيناوعاراً كانت الخسائر الناجمة من هذا الخطأ أكثر شينا وأشد عاراً

عند ما نقلب صفحات التاريخ وتقع أنظارنا على بعض المظالم

للدهشة ، لانمالك من تبجيل أيامنا الحالية ـ ولو على غير اختيار منا ـ أمام الوقائع الدموية التي حمي وطيسها في تلك الازمنة

نرى اليوم ارتقاء هيئتنا الاجتماعيه فنقدس في انفسنا هذا الرقى التدريجى . زماننا ـ على أى الحالات ومن كل الوجوه ـ زمان الانسانيـة ولو فكر أولئكم الخلفاء المستبدون في وقع ضربأتهم الا ليمة ، لو علموا أثرها الكبير وانعكاسها المدهش لامتنعوا عن تلك المظالم الشائنـة التي ارتكبوها واضحـوا غرورهم فى سبيل الاحتفاظ بحسن الذكرى

الفصل الثانى

الجوهرة النفيسة فى عقد بنى العباس ، الزمردة الثمينة بين درر النساء ، تلك التى كانت قلادة تزين جيد العصر الثانى من الهجرة ، أخت الخليفة وبنت الخلافة . ذهبت ضحية الاقدار وفريسة الظروف القاسية

السيدة العباسة ، اللبيبة الذكية ، أجمل بنات المهدى ، ثالث خلفاء بنى العباس ، تمثال المأساة فى ميدان التاريخ الاسلامي ، وسحاب قاتم ، خلط بياض شهرة الرشيد بسواد دائم .

كانت معززة مكرمة فى عائلتها الهاشمية النجيبة لما امتازت به منذ نعومة اظفارها من الفطنة والكياسة وحسن الذوق والبلاغة . فكانت تنزل من نفوسهم منزلة سامية ؛ منزلة التقدير والاجلال .

أما قصة حياتها وأوائل نشأتها ، فهى اسطورة جميلة تشتاق الآذان اسماعها والتلذذ بحلاوتها

مرت أيام صباها فى بغداد كنسمات الصبح بين أحضان حدائقها الغناء ، فاكتسبت من بدائع الطبيعه رونقها واستعارت من الورود نفحاتها ، ومن البلابل نغماتها ، ومن ساعات الفجر

وأوقات السحر بهجتها وضياءها ، هامت فى أودية الجمال ، جمال الطبيعة ، فأشبعت روحها وأنظارها من كوثره العذب

نشأت وترعرعت فى مسارح الذوق والصفاء وفى مجالس الأنس والدلال ؛ وفى مغانى السرور والابتسامات فشبت موسيقية الطبع . جميلة الروح ، فاتنة الشكل ، متحلية بالادبين: أدب العلم وأدب النفس ، كلفة بالشعر ، كلفها بالورود والازهار ونفائس المعنويات والماديات .

فتحت أنظارها في أبهة قصرها المشرف على الدجلة فشاهدت ما حواه من طنطنة ودبدبة وتمت النفس بدهاليزه المعنبرة وغرفه المزهرة فازدادت بهجة وجلالا .

انها ملاك جميل : ملاك لانسمع بذكره الا فى أساطير الاولين الا أنها تمتاز عن ملائكة الاساطير بقصر حياتها . ولو دققنا النظر في تلك اللآلىء التى تزين جيدها ، لآلىء مآسانها وأيام حياتها ، لو جدناها قد انتظمت على سلك من الاحزان والآلام . ان المرء ليفضل قلادة خزفية على تلك الجواهر المنظومة في سلك الاكدار . هذا أمر طالما تمنته . فكم أرادت أن تبيع عقدها لقاء أيام من السعادة طويلة الأمد ولكن الدهر القاسى ، الدهر المتسيطر على عالمنا الحقير أبى عليها هذه النعمة . بل عاداها وأشهر عليها حربا عوانا لتشتها في خلع عقدها ولقد كانت

تراه نيراً يستعبد روحها

لم تمت العباسه لانها تعقبت آثار الغواية المموجة كلا . انها ارادت ان تجنى ثمار الامل دون أن تحفل بالقدر أو تعبأ به فماتت وتدهورت تحت عجلات الاقدار ودفعت بجسمها لهذه الدنيا دينا هو في ذمة كل انسان يعيش على وجه البسيطة، فكان مقتلها منقبة تاريخية وضياعها باعثا على تسجيل اسمها في صحيفة لاسماء الخالدة .

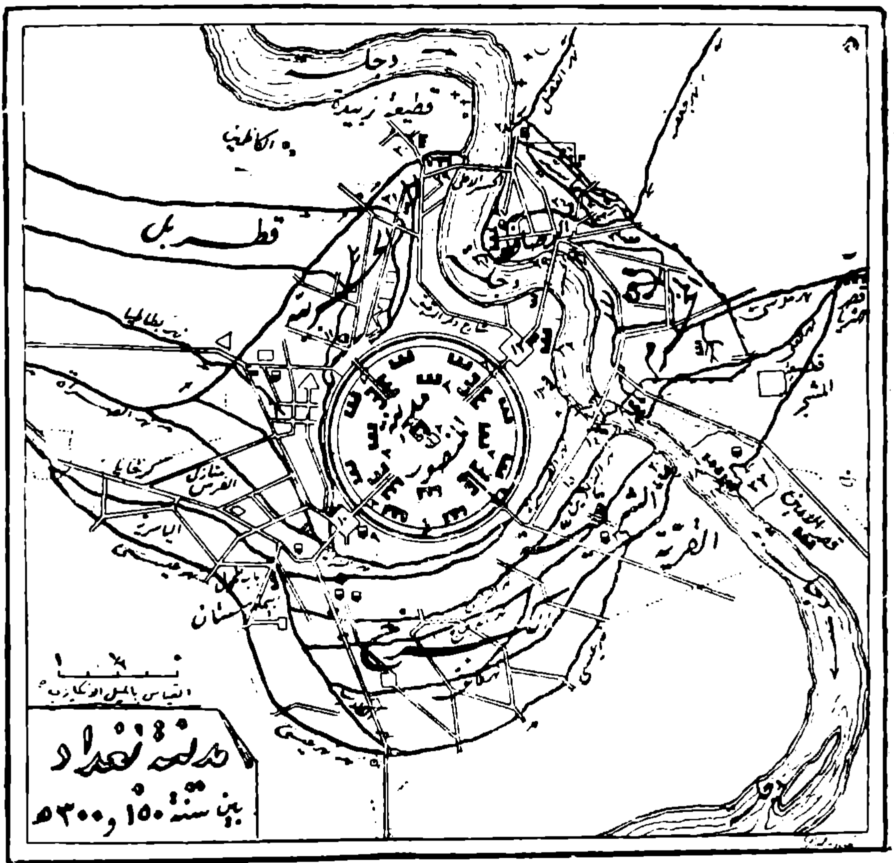

عن تاريخ التمدن الاسلامي

الفصل الثالث

البرامكة الذين كانوا غرة في جبين الدولة العباسيه وتاجا على مفرق أيام الرشيد ،هم أحفاد بعض المماليك من الفرس الذين استوطنوا بغداد أيام خلافة المنصور . كانوا قديما على دين المجوس ثم اسلم منهم من أسلم وحسن اسلامهم . استوزر المنصور جدهم خالد بن برمك فكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة التامة في شئون الحكم والادارة وضربت بمكارمهم الامثال وشدت اليهم الرحال ونيطت بهم الأمال بذلت لهم الدنيا أفلاذ أكبادها ومنحتهم أوفر اسعادها فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسيول دافقة والغيوم ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وابهة المملكة ظاهرة

أما يحيي بن خالد وهو والد جعفر فكان فخر العائلة البرمكية وكان من عادته اذا ركب ان يعد صرارا فى كل صرة مائتا درهم يدفعها الى المتعرضين له يمينا ويسارا فاذا رآه الناس بشر وابعضهم البعض بتدفق غيوث خيراته وحسناته عليهم

يحكى أن احدا عداته البخلاء اضطر فى احدى المجالس أن

يصافحه الا أنه ما كاد يضع يده في يد يحيي حتى أرجعها خائفاً مذعوراً؟
فنظر اليه يحيى نظرة المستغرب النافد فأجابه:

ـ أخاف إن صافحتك ان تسري الى عدوى جودك وكرمك (١)

كان قصر البرامكة على شاطئ الدجلة قبالة قصر الخلافة وكانت ابوابه مفتوحة ليل نهار للزائرين من غادين ورائحين وكان ابو نواس يسمي دارهم ملجأ الاسلام وهو القائل فيهم

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم　　بني برمك من رائحين وغاد

أراد يحيى بن خالد البرمكي ان يلقي على الهادي وقد كان ضعيف الرأي (٢) درسا محسوسا في أيام وزارته له — رغب الهادي في شراء جارية حسناء بالغ مائة الف دينار فاستعظم وزيره هذا المبلغ وأفهمه غبن هذه القيمة الباهظة الا ان الهادي أصر في رغبته ولم تجد نصائح الوزير نفعا فتلمس يحيى وسائل اخرى لتسوية

(١) لعل الاميرة تعني بذلك قول الشاعر .

لا تراني مصافحا كف يحيي
انني ان فعلت ضيعت مالي
لو يمس البخيل راحة يحيي
لسخت نفسه ببذل النوال

(٢) اننا لا نقر الاميرة على هذا الرأي لان المعروف عن الهادي انه كان متيقظا غيورا، كريما شهما شديد البطش جريء القلب مجتمع الحس ذا اقدام وعزم وحزم في المهرب —

الأمر وبينما كان يفكر فيما يجابه مثل هذا الاسراف من الخراب على الدولة خطرت بباله حيلة جميلة: جمع من الدراهم مايوازى قيمة المائة الف دينار وبعثرها فى صحن الجامع الذى يصلى فيه الهادى وعند وصول الهادى الى الجامع فى صلاة الجمعة ومعه يحيى نظر الى الدراهم، المالئة أرجاء الجامع شرقا وغربا ، فقال:

ـ ماهذا؟ ما اكثر هذا المال

فوجد الوزير الفرصة سانحة وأخبره بان هذا القدر من المال هو ثمن ماسوف يدفع لمشترى الجارية فاستعظم المبلغ ورجع عن عزمه . وكان يحيي يعجبه أخلاق هارون الرشيد ويفضله على أخيه الهادى وعندما حاول الهادى خلع اخاه من ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر بن الهادى حادث يحى فى ذلك فقال له

ـ ياأمير المؤمنين . ان فعلت حملت الناس على نكث الايمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر كان ذاك أوكد فى بيعته

فصوب الهادى رأيه وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحي بن خالد عنده

بعد انتهاء عهد الهادى وقد ظل عاما واحدا بايع الناس أخاه هارونا والفضل فى ذلك راجع الى يحيى فعظمت منزلة البرامكه من نفس الرشيد وأظهر امتنانه لهم فى كل فرصة

سنحت . كان ينزل يحيى منزلة الوالد . استوزره فى أوائل خلافته وترك مقاليد الامور وديعة له يعمل فيها برأيه الثاقب وحنكته وتجاريبه فى الحياة فكانت اكثر النواحى والامصار تحت زمام حكمه وسيطرته وبعد أن تقلد الوزارة بضع سنوات أصبح ابنه جعفر الوزير المخلص للرشيد ورفيقه ونديمه وصديقه العزيز ، ذا المكانة السامية فى سويداء قلبه لا يفارقه لحظة من اللحظات . كان جعفر . اذ ذاك فى العشرين من عمره وكان أخو الخليفة فى الرضاعة(١) فكانت أبواب القصر ودائرة الحريم مفتوحة الابواب له على الدوام ولحسن محضره ولطف حديثه أصبح محبوبا مألوفا من أفراد عائلة الرشيد .

كان جعفر طويل القامة ، نحيف البنية وسيم الوجه ابيض اللون ، مستدير اللحية ، ذا عينين براقتين وابتسامة حلوة حديد المزاج ، فاضلا كريما على جانب عظيم من العلم والفضل وله من موارد الثروة مالا يقل عن الخليفة فلا يكاد يوجد فى بغداد انسان لم يصبه جانب من كرم فضله ومروءته فكان محبوبا من الجميع ، يعتبره الناس النجم المتألق فى سماء عرش العباسيين

---

(١) ظئر الرشيد انما هو الفضل وليس جعفر وكان الرشيد يأنس بجعفر أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل

وكان يرى بنفسه كل المسائل المعضلة فيحل عقدتها برأيه الثاقب ويريح الخليفة من هموم الادارة وأعبائها ومع أنه لا يغمض له جفن ولا يستريح فى ساعة من ساعات الليل فضلا عن النهار فى مصالح السلطنة ، فكان لا يفارق الخليفة فى مجانسة أو منادمة . وكان أديبا أريبا يعلم الشعر ويفهم الموسيقى ولذلك لم يبق انسان فى بغداد لا يقدر قيمة هذا الوزير المقطوع القرين

أحضر العلماء والحكماء وأمرهم بترجمة الكتب الاجنبية وشجع الفلاسفة والمفكرين وأسس دور العلم ونشر التجارة والطبابة والحكمة في ربوع بغداد حتى أصبحت محطا لرحال العلماء وقطب رحى الآداب والفنون ولم يمض على هذه المدينة الا القليل حتى سميت (أسواق الآداب)

كان الرشيد يغدق النعم والخيرات على من يجلب له السرور ويسبب له الغبطة فيضحى إيراد بيت المال وضياعه الخاصة في سبيل شخصه أما جعفر فكان يصرف ماله فى سبيل المحافظة على مجد الرشيد وأبهة ملكه وخلافته التى يتفانى فى خدمتها . وكان مع ميله الى اللذات يصرف نصف أمواله فى وجوه البر والحسنات

اشتهر الرشيد بحسن ادارة جعفر ومانال ألقاب الحمد والثناء إلا بفضل سخاء جعفر . ثم كان بعد ذلك من أصحاب الحكمة والحجى باستعداد جعفر وكفاءته كما اصبح قرين العلماء ، جليس

الادباء ، نديم الشعراء بارشادات جعفر وبجعفر فحسب كان الرشيد رشيدا .

ما أجلها روحا ، تلك الروح العالية والنفس الابية التى تستنسخ مزاياها من أشخاص أخرى ولا تفقد بذلك بهجتها وأضواء كمالها

كان الرشيد فى بداية حكمه مسودة لوحة فنية تحتاج الى ألوان عديدة واصلاحات كثيرة وبمرور الزمن أصبحت تلك المسودة الناقصة في أيام وزارة جعفر لوحة فنية نفيسة وظهرت فى معرض التاريخ بتلك الابهة والعظمة

واليك الحكاية الآتية دليلاً على الروابط القوية والالفة المتينة الموجودة بين الرشيد

قيل : ان جعفر بن يحيى جلس يوما للشرب وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيأ المجلس ولبسوا ثيابا مصبغة وكانوا اذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو لبسوا ثياب الحمر والصفر والخضر ثم ان جعفر تقدم الى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله سوى رجل من الندماء كان تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات وخفقت العيدان و كان رجل من اقارب الخليفة يقال له عبد الملك ابن صالح بن على بن عبد الله بن العباس و كان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب

معه وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل ،فاتفق ان هذا (عبد الملك بن صالح) حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له ، فظن الحاجب انه هو عبد الملك بن صالح العباس، فأدخله على جعفر بن يحيي ،فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن ان القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضا للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيي ،فانبسط عبدالملك وقال :

— لا بأس عليكم احضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئا

فأحضر له قيص مصبوغ فلبسه وجلس يباسط جعفر ابن يحيى ويمازحه، وقال.

— اسقونا من شرابكم .

فسقوه رطلا وقال:

— ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا

ثم باسطهم ومازحهم وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحياؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحا شديدا وقال له

—ماحاجتك؟

قال :

جئت -أصلحك الله -في ثلاث حوائج ، أريد ان تخاطب الخليفه فيها ،اولها ان على دينا مبلغ الف الف درهم أريد قضاءه

وثانيها أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره . وثالثها أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة ، فانها بنت عمه ، وهو كفء لها

فقال له جعفر .

ـ قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أما المال ففي هذه الساعة يحمل الى منزلك : وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر . وأما الزواج فقد زوجته فلانة ، ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف في أمان الله

فراح عبد الملك الى منزله ، فرأى المال قد سبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ماجرى وأنه قد ولاه مصر وزوجه ابنته فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد (١)

---

(١) الفخرى

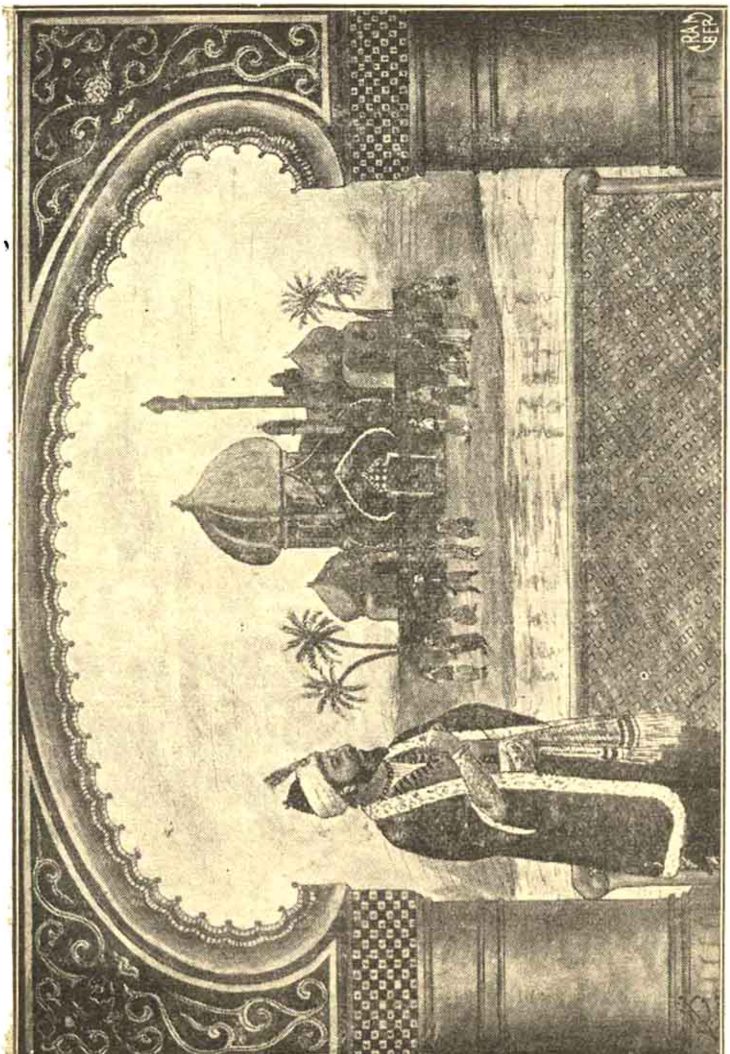

الرشيد يراقب الجموع المحتشدة أمام قصر البرامكة

الفصل الرابع

تلك هي ثقة الرشيد بوزيره وأنيس قلبه وحبيبه العزيز جعفر والى هذا الحد البعيد وصلت دالة الوزير على مولاه الخليفة . كان يرى بنفسه أكبر شئون الدولة وأعوصها . فيقيم أوزانها. ويفصل فى قضاياها سواء كان فى حضور الحاكم أو فى غيابه . وسواء علم الرشيد أم لم يعلم . فهل كان يخطر على البال أن تنفرج بينهما شقة الخلاف ؟ وهل كان يظن أن الشمس تشرق عليهما ذات يوم وهما مختلفان متنافران وقد أحبا بعضيهما واستوثقا من نفسيهما الي هذا الحد ؟ لم يكن بين الخليفة ووزيره سر مكتوم ، فكل سرائر الخليفة ونياته صفحة مفتوحة أمام جعفر ، وكل دخائل جعفر وخفايا نفسه ملم بها الخليفة . فهل يأتى عليهما يوم يتنكر فيه أحدهما للآخر ؟ ما كان يمضى يوم دون أن يذهب رسول من قصر الخلافة الى قصر البرامكة . ما أكثر ما كان يخرج جعفر من حضرة الرشيد فيرسل فى طلبه ، وما أكثر الاوقات التى خرجا فيها الى الصيد والقنص ! ما أكثر الليالى التى أمضياها معا جنبا الى جنب يتفقدان فيها أحوال بغداد ! ما أكثر الهدايا والتذكارات الثمينة التي يهدى بها الخليفة وزيره الصادق ! فهل

كان لـكل هذه الاوقات والساعات والليالى والايام نهاية وحد؟

ثم كان لها مدى وغاية. كانت الايام الدائرة ، تلك الايام التي تمضى بمثات من المشاغل والحوادث تقترب ببطء وهدوء لهذه الغـاية . كانت السحب المتـكاثفة في سمـاء مستقبل الوزير تنذر باحتمال حدوث هذا الانقلاب التدريجى . لان أعداء جعفر كانوا يتكاثرون ويتفاقون بنسبة استفحاله فى الشهرة وبعد الصيت توهم أنه يستطيع أن يستهوى أفئدة الخلق ويستعبد قلوبهم بقيود نعمته وسلاسل جوده . وقـد فاته أن الناس قد تنسى كل حسناته إزاء نعمة واحدة يغدقها عليه الخليفة أو ميزة من المزايا يختصه بها دونهم .

لولا الحسد وما تنطوى عليـه الصدور من الاحقـاد ولولا ما يحمله الانسان لأخيه الانسان من ضغينة وغل لما استطاعت رياح الاقدار أن تطفيء شمس سعادته المضيء

كثر الساعون فى اخلال روابط الثقة المتينة التي بين الخليفة ووزيره ، واشتد ساعد الذين يحملون المعاول الهادمة لهذه الثقة. وبين هؤلاء الساعين الاميرة زبيدة فانهـا نفرت منه منذ حادثة مكة وانتهـزت كل فرصـة سانحـة لتكون ضده . انهـا لم تنس نظرات جعفر المصوبة الى ابنها الامـين وهو يحلف ثلاثا يمـين الطاعة وعدم الخيانة بين يدى أبيه الرشيد وفى حضوره فى بيته

الله الحرام ، لم تنس سعيه في تنصيب المأمون لولاية العهد بعد ابنه الامين ، بل أسرت ذلك فى نفسها ، متوعدة الانتقام يوما ما من هذا المملوك الفارسى

لم يتدرع جعفر الا بالنعمة . وكان مرتاح الضمير ولذلك لم يخش خصومة أحد حتى ولا تنكر الخليفة عليه . لم يشك في انسان ولم يتوهم ان الخليفة قد يحنق او يحقد عليه فى ساعة من الساعات ، لم يخطر على باله أن الخليفة قد يرتاب به أو يسىء اليه الظن وهو يشاهد من شرفة قصره جماهير الخلق المحتشدة فى الضفة اليسرى من الدجلة حول قصر البرامكة . لم يدرك أن هذا العالم الى فناء وبوار لأن سجف السعادة والرفاهة كانت تستر الحقيقة عن عينيه

كان ينظر الى هذا العالم بعينى مسافر يقطع الصحراء ووجهته السراب يخطو اليه مبتهجا مسرورا مفتونا مأخوذ اللب . كان يعيش آمنا مطمئنا غير حاسب لعاديات الدهر حسابا لماذا ؟ لأنه كان واثقا من مودة الخليفة . كان يعلم أن منزلته من نفس مولاه الرشيد هى منزلة العباسة من نفس أخيها أجل إن الرشيد ما كان يستطيع صبرا عن مفارقة أخته العباسة التى شبت ونشأت معه وشاركته في أهوائه وميوله . كان التذاذه من مشافهة العباسة لا يقل لذة عن محادثة جعفر ، وإن سروره من سماع اشعارها يعادل ابتهاجه

من منادمة الوزير له وكما كانت أدبيات أخته تجلب له السرور والانشراح ، كذلك مواعظ جعفر وأقواله الحكيمة تثلج صدره وتدعوه الى الاغتباط . كان يفتخر بجاذبية العباسه ويباهي بوقار الوزير ورزانته . وبالاجمال كان لايحتمل مفارقة احدهما فكانا يجلسان اليه معا فى القصر والحديقة ومغانى اللهو يتناشدون الاشعار ويخوضون فنون الحكمة والفلسفة . كانت العباسة على علم ناضج وأدب رائع ، تعد من حكيمات عصرها وعالمات زمانها وكان الرشيد يسر من الرجوع اليها في كثير من معضلات المسائل العلمية ويناقشها ويجادلها الساعات الطوال فى مختلف الفنون وعندما كان ينبيء الاميرة زبيدة بطرف من هذه الحوادث كانت تغضب ويظهر عليها أثر الانفعال . كانت لاتهضم علو كعب العباسة فى العلوم ودرجتها المعنوية الرفيعة فكانت تنفس عليها هذه الرتبة وتغار منها مع أنها على حظ وفير من العلم

عندما كان يجلس الثلاثة ، الرشيد والعباسة وجعفر ، فى المجالس المعنبرة ذات القباب المكسوة بآيات الفن من قصر الخلافة فيخوضون لجة الحديث والمسامرة ويشفون عباب الشعر والموسيقى وتمتلىء نفوسهم بالغبطة والهناءة ، ينسون بغداد ولا يخطر على بالهم شأن من شئون العالم . من يدرى أى الدرر من غوالى الالفاظ وثمار القرائح ونتاج العلم الناضج كانت تسقط

فى أرجاء تلك المجالس ؛ لو كان للجدران المغطاة بقطع الديباج والمكسوة بأنفس الحرائر لسان ناطق لأتحفنا اليوم بنكات لطيفة ومعان مبتكرة جميلة وحسنات من اللفظ لاتخطر على البال .... ولكن قد تداعت الجدران وطارت الاستار على أجنحة آلهة الشعر وذهبت تلك الايام أدراج الرياح ولم يبق لنا من ذلك الماضى المشعشع سوى خزانة محدودة من الخواطر . اننا لنمتطي الآن سفينة الذكرى ، ذكرى (الانس المثلث) :الرشيد والعباسة وجعفر ونخوض خضم تلك الايام فلا نجد شيئا ولا نشعر الا برذاذ من أمواجه ....

كان الرشيد مغتبطا بهذا (الأنس المثلث) وكان يرمى بنفسه فى أحضان هذين العزيزين لينسى مشاغل اليوم ومتاعب الادارة ؛ كان يشعر بهناءة كبرى من تلك المحادثات والمنادمات التى يعقدها فى المجالس ذات القباب ولا يكتم شعوره هذا عن العلماء وأكابر رجال الدولة ممن يمثلون بين يديه

كان يثنى على ذكاء العباسة ويقدر بلاغة جعفر ويباهي بمنادمتهما له . هذه الحالة الروحية كان ينفر منها العلماء الذين كانوا يتغافلون او يتغاضون عن مجالس اللهو والشراب المنتشرة فى العصر الثانى من الهجرة . كبر عليهم مجالسة العباسة للرشيد فى حضور جعفر فسددوا اليه سهام نقدهم ولومهم . لم ينتقدوا رفاهية العظماء

واستفحالهم فى ضروب اللذة ، الامر الشائع في ذلك العصر مثل انتقادهم لهذا الامر وكان الرشيد لا يستهجن هذا النقد ويرى أنهم محقون فى هذا اللوم ولكنه لم يستطع ان ينقطع عن أمر يشبع روحه باللذائذة المعنوية فلم يأل جهدا فى التفكير وأعمال الروية لايجاد حل معقول للمسألة ، وفى النهاية جمع علماءه فى القصر فعقدوا مجلسا لهذه الغاية .

أعمل العلماء رويتهم وشحذوا قرائحهم فوجدوا أحسن حل للمسألة أن يعقد لجعفر على العباسة إلا أن الرشيد لم يقنعه هذا الرأى . لان العباسة الشريفه سليلة العائلة النبوية لا يمكنها ان تتزوج بجعفر ، لا يجوز لمملوك ايراني ان يقترن بسيدة من عقيلات بنى هاشم ، فلا مناص اذن من ايجاد حل آخر كان الفقهاء فى موقف دقيق لا يسعهم ان يكونوا هدفا لغضب خليفتهم فاحتاروا وأسقط فى يدهم لانه محتم عليهم ان يوفقوا بين أوامر الشريعة ورغبات الخليفة وبينما هم فى لجج الحيرة والدهشة خطرت على بال احدهم فكرة عرضها على مولاه فنالت الاستحسان . رأى هذا العالم أن يزوجها حتى يحل له النظر اليها ولكن لا يقربها (١) وهكذا أجازوا تلك المسامرات الليلية فى قصر الخلافة تحت هذا الشرط . فقبل الخليفة أن يعقد له عليها ورضى

---

(١) ابن الاثير . الطبرى . الفخرى

بالشرط وبذلك تخلص الرشيد من قيل الناس وقالهم وعاد الى منادمة صديقيه العزيزين وجليسيه الاليفين

لم يكن بعد هذه الحادثة انسان أسعد حالا من الرشيد . انه ليقاوم أصعب الأزمات فيفرجها برأيه ، إنه ليقف باسما هازئا امام الشدائد والمصاعب يتحكم فى القوانين والشرائع والعادات ويبسط سلطان نفوذه على غرائز الطبيعة فيظهر ازدراءه لما يظنه الناس امرا مستحيلا

أيها الغرور ! أيها الطابع الازلى للانسانية ! كم نفساً تحطمت على صخرتك العالية وكم أملا تكسر عند أقدامك وكم رغبة حارة رددت أنفاسها الاخيرة فوق مذبحك ! وأى انسان استطاع مقاومة مغناطيسيتك . لو أحصينا الذين رموا بأنفسهم فى أحضانك فكم يبلغ عددهم ؟

أيتها البشرية ! لم تستطع الاجيال ان تغير تأثير غرائزك الموروثة ولم تستطع العصور المتقادمه أن تعدل تربيتك الروحية والفكرية

كان الرشيد يعتبر الساعات التى يقضيها بجانب وزيره من ألذ أوقات عمره وأشهاها . كان لا يصبر عنه لحظة واحدة ويستفيد من ذكائه وعرفانه ويتنازل لقبول مشورته وآرائه ومع ذلك أظهر التردد والخوف أمام علمائه وفقهائه الذين أجازوا اختلاطه بأفراد عائلته معلنا لهم انه مملوك فارسى !

اصل جعفر وأرومته هو نقصه الوحيد ، ماولقد أثبت الرشيد بأن المروءة والشهامة وأدب النفس مزايا أنسانية لا تشفع للمرء في جميع أطوار حياته فقد استنكف اولا مما عرضه عليه علماً بأنه لو اننا وصلنا الى قرارة نفس الرشيد لعلمنا انه كان راضياً عن أمر الزواج الا ان غروره المتسلط على قلبه وقف حائلا بينه وبين الرضى بهذا الامر أما جعفر فقد كان مغلوباً على امره امام علم العباسة ومزاياها الروحية فكان يزداد تعلقاً بها وشغفا بنفسها رغم أوامر الخليفة . كانت العباسة حياة جعفر ، يمدها بروحه وجسمه حتى لقد أصبحت عيناه لاترى نوراً غير نور هذه النجمة التى سطعت فى سماء حياته

فى هذه الآونة كانت العيون والجواسيس التى تأتمر بأمر زبيدة واقفة لحركات جعفر بالمرصاد فى غدوه ورواحه الى قصر العباسة ، ويحملون الى زبيدة حوادث تنزههما معا فى حديقة تتمايل بين خمائل الورود والقرنفل وكان الجواسيس لا يتكلفون عناء كبيراً في سبيل مأموريتهم لان جعفر كان يمشي بملابسه السوداء شارة العباسيين ، ويصل الى القصر من طريق الشرفة المطلة على الدجلة جهاراً عيانا دون تنكر إمامه ممتطيا صهوة جواده واما راكبا زورقه

كانت أخبار هذه الزيارات الليلية تصل اسماع زبيدة وابنها والفضل فيعقدون مجالسا من مشايعيهم لتدبير مكيدة يوقعون

جعفر فى حبائلها

كان الفضل بن ربيع خادماصادقا للامين، ذى المزاج المتلون .
كان فى مبدء أمره حاجب الخلافة ويشغل الآن مركزا كبيرا وكان يحسد جعفر لمزاياه العالية ويطمح الى الوصول للوزارة فجعل يعمل على اسقاطه سرا ولا يرى فرصة فيها هلاك البرامكة إلا اقتنصها .
كان يريد أن يقضى على الذين وقفوا حجر عثرة فى سبيل آماله وأطماعه فلم يقعد يوما عن سبيل فيه ايذاء جعفر . وقد أسعفته الاقدار بما كان يبحث عنه . خرج يحيي بن عبد الله العلوى على الرشيد فاغتم الرشيد لذلك وندب اليه الفضل بن يحيي فذهب اليه الفضل وحاصره فمال يحيى الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد فأجابه الرشيد الى ذلك وسُرّ به وكتب له أمانا فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد أول الامر بكل ما أحب ثم أمر بحبسه بعد ذلك فلما سمع الطالبي ذلك حتى أسرع الى جعفر قائلا :
ـ قد كتبت لنا أمانا فحضرنا اليك فاذا أنت أمرت بابقائى فى السجن عرضت نفسك لقهر الله وغضبه

وعلى اثر ذلك أطلق جعفر سبيله فاغتنم اعداؤه هذه الفرصة ونقلوا الحادثة الى الرشيد

الفصل الرابع

كان الرشيد حانقا غاضبا بعد تلك الحادثة وأخذت مكانة جعفر تتضاءل في نفسه شيئا فشيئا وكأني به وقد اختلى بغرفته على أثر سماع هذا النبأ وأوصى مسرور السياف بأن يمنع كائنا من كان من الدخول عليه يقول في سره : ماهذه الجرأة كيف يستطيع جعفر أن يعصى لى أمرا وانا الخليفة صاحب النهي والامر . إنه قد وصل من استبداده الى حد لا يمكن السكوت عنده ، وكأني به وقد حادث نفسه بمثل هذه الاقوال يشرف من نافذة غرفه ، محاولا تسلية نفسه بزئير الاسود المحجوزة في أقفاصها الحديدية بحديقة القصر

بلى ؛ هذا ماحدث فان التاريخ نقل الينا انه نزل بعد سماعه هذا النبأ الى حديقته ، حيث أقفاص الليوث وهنا طلب من الحارس أن يحضر له رضيعا مذبوحا من الغنم .

أخذ قطعة صغيرة ورماها الى أعز الليوث عنده فالتهمها في الحال . وقف بعد ذلك ينتظر ان يلقى اليه الباقى . انتظر كثيرا ولكن عبثا لان الخليفة امر الحارس بأن يمنع عنه الباقى . عيل صبر الاسد وكان يزأر من حين لآخر كأنما يطالب بلسان الحال فريسته . وقف الرشيد يتأمل طويلا هـذا المنظر ويقارن بين حالة الاسد

وحالته الروحية وكأني به الآن وقد امتزجت نفسيته بنفسية الاسد مشفق عليه ، ونادم على منع الفريسة عنه. وكأني به وهو ينظر الى الحارس شذرا ويلومه لانه ينفذ فى صديقه الاسد هذا الامر القاسى ، يجد فى الاسد شبيهاً به وبالحارس مثيلا لجعفر ، عدوه الآن .

وعند ماعيل صبره لم يطق احتمال رؤية الاسد يتعذب فأمر بأن تلقى اليه الشاة كاملة فألقيت وهجم الليث على فريسته وقطعها إربا بين براثنه وأخذ يقضم العظام بأنيابه وبعد أن استقرت كاملة فى معدته ربض ربضة الآمن المطمئن وأخذ يصوب نظراته الى الرشيد ، تلك النظرات التى لم يذهب عنها بريق الحدة والغضب

أما الرشيد فبعد أن وقف طويلا أمام هذا المنظر عاد الى قصره وقد هدأت الثورة القائمة بين جوانب نفسه

إنه ليفكر فيقول فى سره لو كنت الآن داخل القفص فأى شىء كان يمنع الليث من أن يهاجمنى فيفترسنى افتراس قطعة اللحم . كان يرى فى نفسه وهو يمشى نحو القصر بين طرقاته المزينة بأصص الرياحين ، أسداً ظامئاً الى الافتراس ، نفسا طموحة الى الانتقام ، كان تواقا الى التشفى من عدوه اللدود جعفر . ولكن هيهات لم تحن الفرصة بعد فهو ينتظر الفرصة بفروغ صبر ولا يدعها تفلت من يده بعد اليوم .

وصل الخليفة الى القصر وصعد تواً غرفته الخاصة وكان منظر الغروب جميلا يجذب الروح فجلس متكئا على النافذة يتأمل بحزن واطراق ألوان السحب المتماوجة فى السماء ومالبث أن مد ببصره الى الضفة الاخرى من الدجلة حيث يوجد قصر البرامكه

ارتعشت نفس الرشيد داخل جسمه . كان الناس عند مدخل القصر ينتظرون أوامر الوزير ، بين داخل وخارج، يهرولون ذات اليمين وذات اليسار وبينهم الجنود ورجال المعية فى هرج ومرج . هنالك الضجيج ، هنالك الحركة ، هنالك كل شىء .

ارتكزت عيناه عند هذه النقطة من الضفة الاخرى وكلما لج به النظر، اشتد حنقه ، وارتفع صدره بنيران الغيظ المضطرمة بين أحشاء قلبه . كانت أهداب عينه تهتز بحركة عصبية وهو يرى أن سكون الماء وهدوء الطبيعة لا يتخللها سوى حركة واحدة فى تلك الساعة ، هى الحركة الآتية من الضفة الاخري أمام قصر جعفر

أيقن الآن أن جعفر هو حاكم بغداد وأمير الدولة وخليفه الاسلام . علم الآن أن جعفرا كان كل شىء . ولكن أين هو من هذا الضجيج؟ أين مكانته من هذه الحركة ، أين عز الخلافة وشرف الجاه؟ هنالك في قصر البرامكة ، الذى يلمع بالاضواء

وعوج بالحركة أما قصر الرشيد فقد تسربل رداء السكون والصموت .

تبطنت اعماق نفسه بآلام خفية فى هذه اللحظة فنسى كل شيء

نسى صداقة جعفر واخلاصه وفطانته ، نسى أن هؤلاء المحتشدين حول دار وزيره جاءوا يلتمسون نداه ، يستعطفون مروءته ، يلتجئوا الى ظل شهامته . نسى انهم وافدون اليه لقضاء مصالحهم ؛ نسى أن جعفراً أخذ على عاتقه هذا الحمل ليخفف عنه العبء . نسى فصاحة وزيره وحسن تدبيره ودرايته . نعم نسى كل شيء ولم يبق فى عقله وذهنه الا أمر واحد ، اهتزت له أرجاء روحه وأخذ قلبه يخفق لاجله من الحدة والألم . وكأنى به يقول : « لست انا الخليفة وانما الخليفة جعفر ما أشد بلائى ! كيف لم أفطن الى هذه النتيجة ماذا أستطيع ان أعمله الآن لو أن جعفراً نزع الى انتزاع الحكم من يدي وسير رجال الجيش على ، وجلهم من الاعجام صنائع معروفه ونداه ؟ »

هذا ما كان يردده الرشيد في مثل هذا الظرف ، لا سيما وقد اشتدت حجيات الاعداء ووشاياتهم فى حقه فلا يلتفت حتى يسمع واشيا ولا يمشى خطوة حتى يجد من يحدثه بخيانة جعفر له . وما أكثر الاوراق التى كان يجدها فى سريره تحذره بعاقبة الحال وسوء المنقلب

فكر كثيراً واستعرض وجوه الرأى للتخلص من هذه الحال فخطر بباله ان يوفده الى الخراسان ولكن أحجم عن هذا الرأى لخطورته لان جعفر قد يجتمع مريدوه واشياعه حوله هناك، فيؤلف منهم قوة كبيرة لا تقاوم، فلم يجد الا القتل داء شافيا . ولكن كان عليه أن يلتمس لقصده هذا عذراً وينتظر الفرصة السانحة . ولذلك لم يجد مندوحة من الصبر والتأنى فنادى مسروراً وأمره بان يذهب الى وزيره، يدعوه الى تناول طعام العشاء

كان الرشيد ينتظره بوجه باسم ومحيا طلق وهو على أريكة مزركشة قائمة على عرش مذهب . وعلى مقربة منه مائدة تنوء باطباق الفضة المحتوية على صنوف الفواكه والمشمومات، بجانبها أكواب من البللور، تتلألأ داخلها أشربة ملونة وقد فاحت القاعة بعنبر العنبر والصندل والعود

فى الغرفة المجاورة، على مقربة من القاعة التى فيها هذه النفائس، كان أبو نواس وأبو زكار وابراهيم الموصلى يتشاورون فيما بينهم على الاغاني والالحان التى يطربون بها فى تلك الليلة مسامع مولاهم الخليفة

لم يمض على انتظار الخليفة زمن كبير حتى وصل مسامعه صليل السيوف وصهيل الخيول . حضر جعفر مع رجال حاشيته

صوب الخليفة انظاره نحو الباب الذى سيدخل منه الوزير. وعند مارفع الوزير السجف الحقيقية المتدلية على الباب نظر الى الخليفة ثم الى نظراته المنطوية على الغيظ والحقد فكاد يصعق فى مكانه ولكنه لم شمته وخطا نحو الخليفة خطوات ثابتة ، يقدم له تحية الاحترام

أخفى لرشيد مابين جوانحه من الغيظ والحقد وابتسم للوزير ليخفى ما تنطوى عليه جوارحه فقال له معترضاً على لباسه : —

— ما هذا ياأخي اننا سنتناول الطعام على حدة فلماذا اعتنيت بلباسك الى هذا الحد؟

كان الخليفة فى هذا المجلس ضاحكا لاهيا ،يملأ الاقداح ويسأل جعفر عن شئونه الخاصة ،ويداعب الندماء ويطرب لنغمات الموصلى وانشاد الشعراء أما جعفر فكان يحاول اسكات خفقان قلبه واضطرابه ليشارك الخليفة فى هذا السرور والنشاط . كان يحاول أن يرفع عن نفسه أثر تلك النظرات الاولى التى قابله الخليفة بها كان يجاهد نفسه ليبتسم وليضحك ؛ ولكن كانت كلمات الخليفة وابتساماته ونظراته تسدد فى صدره كأنها سهام مسنونة. علم جعفر كل شيء وأيقن بزوال مكانته من نفس مولاه وأيقن بالسقوط على أثر تلك النظرة المعنوية

أيمكن أن يكون الخليفة وقف على سره واطلع على ما بينه وبين العباسة ؟ محال أن يكون ذلك . فمن يستطيع أن يخبر الخليفة بهذا الامر ليستهدف غضبه . هل وصلته وشاية أوسعى اليه أحد أعدائه . لاريب فى ذلك فانه كان يشعر بأن أعداءه يتألبون عليه وأن كلمتهم اشتدت فى الايام الاخيرة وبأن نفوذهم أخذ فى الاستفحال

قارب الطعام على الانتهاء وكان الرشيد ووزيره يتناولان الفاكهة وكان الخليفة قد مديده الى اجاصة فقال له فجأة :

ـ كدت أنسى كيف حال يحيى بن عبد الله الطالبي ؟ فارتبك جعفر الا انه قال :

— هو فى الحبس يامولاى

فقال الرشيد: — بحياتى ؟

ففطن جعفر وأجاب : لا وحياتك ، ولكن أطلقته ، لانى علمت انه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد :

— نعم ما فعلت . هذاما كنت انتظره من حسن فطانتك

انتهى الطعام وجلسا يتنادمان قليلا وخاضا فى شئون مختلفة وفى النهاية عندما قام جعفر نظر الرشيد اليه وهو يقول فى نفسه: قتلني الله ان لم أقتلك [1]

---

(١) الفخرى

الفصل الخامس

أسدل الرشيد الستار على تلك الجائحة البديعة بجملة تهديدية حفظها لنا التاريخ حتى يومنا هذا . هاقد دار الفلك دورته وانقضت أيام الصفاء والمخادنة ، أوقات السلام والمخالصة انها الساعة رهيبة . وأزمة عصيبة وشدة مريرة أن يجد المرأ نفسه هدفا لسهام المخاصمة بعد ان كان موضع التجلة والاكرام على غرة من الدهر وغفوة من الزمان

دام الحال على هذا المنوال فتعقدت الازمة وكان جعفر حائرا مهموما واعداؤه فرحين مسرورين ، لا ينفكون عن نصب شراك الحيل والدسائس وايصال الاذى اليه، ماوجدوا الى ذلك سبيلا

اشتد قلق جعفر لانه كان لا يفكر بشأن نفسه فحسب ، بل كان يفكر فى أمر عباسته، فاذا سمع الرشيد بما وصلت اليه علاقتهما وبنتاج هذه العلاقة أى بابنهما حسن ، قضى عليهما وطوى من صحيفة الوجود خبرهما . غير أن جعفر لم يفته أن يأخذ الحيطة قبل وقوع المحظور ولذلك أرسل الطفل الى مكة مع مولى من مواليه المخاصين .

حقا ما الحياة الا مجموعة احساسات وآلام إن جعفرا ليضحى

وزارته وماهو فيه من أبهة حال ورفاهة عيش في سبيل راحتهما وهنائهما ولكن كيف يتسنى له ذلك وقد تكاثر عليه أعداؤه؟ليس أمامه ليعيش آمنا مطمئنا تحت ظلال الراحة والهدوء، الامفارقة بغداد وإن السبيل الى ذلك سهل ميسور فهو يتحمل متاعب السفر الى تلك الاصقاع مع عباسته وابنيهما، انه ليستطيع ذلك اذا قدر أن يترك الوزارة دون أن يلحقه ما يخدش السمعة والشرف . ولكن الشعب الشعب ذى المزاج المتغير ، الشعب المتلون كالحرباء

قد انفض اليوم من حوله وحول بيته الكثيرون ممن نشأوا وترعرعوا في ظلال نعمة البرامكة ونداهم. كان واثقا من ذلك مع انه لم يحاول يوما ما ان يجرح احساس أحد منهم انما كان يسعى في أن يقيم باستقامة وعدل ما أعوج من أخلاقهم. كان عليه أن يقاوم ويكافح وأن يقف أمام هذه الجموع المحتشدة ،مستمداً من المولي العون والعناية . قد صمم أن يقاوم حتى النفس الأخير دون ان يتطرق اليه اليأس أو تفتر عنه العزيمة مادامت روحه المعنوية أى العباسة فى حفظ وأما

نعم كان وجود العباسة يغرس في كل ذرة من ذرات كيانه بذور الشجاعة والاقدام . أراد أن يحيى فى دائرة تنعم العباسة داخل حدودها

كانت أخت الرشيد نجمة آماله،منبع أشواقه ،أفق مسراته،

بل كانت هي الكل في الكل .

كان الآن يعيش للعباسة ويعمل للعباسة ويناضل لاجل العباسة ، انها مقر أمله ومبعث شجاعته وإقدامه . سوف يكافح أعداءه بعد اليوم ويقف أمامهم وجها لوجه ويلقي عليهم درسا فعليا في نظرية تنازع البقاء لغرض واحد هو سعادة العباسة ..

الفصل السادس

بينما كان جعفر غارقا فى قرار عميق من لجج هـذه الفلسفة الروحية والمشاعر المعنوية وهو يظن نفسه فى حصن حصين من خيراته السالفة ونعمائه السابقة ، كان المحذور قد وقع وسبق السيف العذل . أجل ان عيون زبيدة الذين نقلوا اليها أخبار ملاقاتهما الليلية هو والعباسة وتزاورهما ومناجاتهما لبعض تحت أشعة القمر فى حدائق الخلافة ، نقلوا اليها كذلك بشرى ولادة الحسن وارساله الى مكة ، الى غير ذلك من خطير الحوادث

ما كاد ذلك يصل مسامع زبيدة حتى اجتمعت بأفضل ابنها الأمين وتشاوروا جميعا كيف يزفون هذه الحوادث الى مسامع الخليفة . ؟

فكروا كثيرا فوجدوا خير وسيلة يتذرعون بها هو كتابة رقاع يدونون بها ابياتا من الشعر تتضمن الحادثة ينثرونها في أرجاء القاعة التى يجلس الرشيد فيها وسرعان ما عمدوا الى هذه الفكرة فأخرجوها من حيز القول الى دائرة العمل .

لم يمض الا قليل من الزمن حتي علم الخليفة بالسر المكتوم وأسكنه فى قرار مكين من زوايا صدره وسافر فجأة فى تلك

السنة الى الحجاز فأوجس جعفر خيفة من هذه الرحلة وتوقع أن يحدث على أثرها حوادث ذات بال

وصل الخليفة الى مكة فبث العيون والارصاد يبحث عن ابن العباسة الى أن عثر على ضالته وعرف النجل الظريف سايل الدوحة الهاشمية ، من سمات وجهه . كان الحسن ذا وجه مشرق بضياء الحسن والبهجة ، يشبه أمه العباسة أخت الرشيد وتكاد عيناه البراقتان تفشيان سر الحبيب

كاد الحب يتغلب عليه فيشفق على ذلك الغلام الجميل بن أخته لولا الغرور . نعم ! تغلب الغرور على أمره وتسيطر على حواسه فما أعجز الانسان أمام تلك القوة الموهومة التي تسيطر على ارادته

استوثق الرشيد من الامر فقفل راجعا الى بغداد مقر الخلافة ، وقد خفف ذلك من هيجان غيظه وكمده . كان قد سافر الى مكة مسرعا مضطربا فعاد منها هادئا مطمئنا وقد وقف على ما يريد أن يعلمه بل مكث فى محطات كثيرة لقبول الهدايا كما قبل أيضا هدايا البرامكة كالمعتاد وشنف سمعه بمديحهم وحمدهم له وفى النهاية حط الرحال عند مدينة (الانبار) التى يستظرفها على شاطىء الدجلة

كان من عادة الرشيد أن يتقابل مع وزيره جعفر فى هذه النقطة ، مدينة الانبار ، عند عودته من بيت الله الحرام . وكان

من عادة جعفر أن يولم فيها وليمة كبرى يدعو اليها مولاه الخليفة. ولكن حدث هذه المرة ان الرشيد لم يقبل دعوة وزيره وانما فضل أن ينزل فى قصره الخاص ليرتاح من وعثاء السفر. ففهم جعفر ما ينطوى عليه هذا الرفض ونظر الى أفق المستقبل فرآه مظللا بسحابة سوداء اقتربت ساعة الادبار، انها تسرع نحوه، وقد أصبح مستقبل ابنه الحسن مظلما، ماذا ألقاه الخليفة فى غيابات السجون ماذا تكون حالة العباسة؟ ولم هذا الجد العاثر ونكد الطالع؟ أهذا جزاء صداقته واخلاصه للخلافة منذ نعومة أظفاره، ألا يعلم الرشيد كل ذلك؟ ماذا فعل للناس حتى يستحق منهم مثل هذا الجزاء؟ وكأنى به يقول لهم.

- صنعت معكم خيرا فكيف يكون جزائى شرا

هذا سؤال يجيب عليه الزمان، الزمان هو الذى يقول:

انهم خانوك لأنك أحسنت اليهم؛ ألم تسمع قول مشرع الاسلام. (اتق شر من احسنت اليه)

أخذت الافكار ترد مخيلته تباعا آخذة بعضها برقاب بعض ولكنه كان لا يصدق ان الخليفة يعلم يوما ما بينه وبين العباسة لانه كان جد واثق منها ومن رجال معيته. كان يعلم ان منزلته قد قلت فى نظر الرشيد. وكان يعزو ذلك الى الوشايات التى يحيكها الأعداء حوله. وعند ما نقل هذه الحالة الى العباسة وجفاء الرشيد

له ارتعشت لانها كانت تعلم اخبها وأدركت بفطنتها وبعد نظرها ان إدبار جعفر منشؤه علم الخليفة بما بينهما . أراد جعفر أن يقنعها ويسكن جأشها الا انه عبثا حاول تخفيف ما تغلف حول روحها من المشاعر المؤلمة انها كانت ترتعد تحت عبء رؤيا مفجعة قد انقبض صدرها امام مشهد مؤلم اصبحت تتوقع حدوثه الساعة قبل الساعة

كان الرشيد في تلك الآونة وقد سار من الانبار الى بغداد في السفن وجعل قبل أن يصل العاصمة يشرب تارة ويلهو اخرى وعنده ابو ذكار يغنيه فلما اقبل المساء دعا مسرورا الخادم ، وكان ومبغضا لجعفر فقال له

ـ اذهب فجئني برأس جعفر

بعد أن اتم جملته هذه ملأ قدح الشراب وأخذ يسمع أبا ذكار الذي أنطقته الطبيعة في تلك الساعة الفجيعة بهذا البيت

فلا تبعد فكل فتى سيأتي   على الموت يطرق أو يغادي

وبينما كان الرشيد يستنشد أبا ذكار باقي الابيات

كان مسرور في طريقه الى قصر البرامكة وعند ما وصل هناك دخل على جعفر في غرفته بغير اذن وقال له

ـ الخليفة يطلبك

وبينما كان جعفر غارقا في لجج من افكاره عاوده مسرور بقوله :

- ان الخليفة قد طلبك

- لقد سررتني بمجيئك وسوأتني بدخولك على بغير اذن

- الذي جئت له أجل ، أجب أمير المؤمنين الى مايريد بك

فقام جعفر مع رجال حاشيته ورافق مسروراً الى قصر الخلافة وهناك ظل رجاله على الباب ودخل معه مسرور الى الحديقة وعطفا الي غرفة خاصة على الطريق وهنا قال له مسرور

- ان الخليفة يطلب رأسك

صعق جعفر في مكانه على أثر هذه الجملة وتضعضع أمام هذه الضربة القاضية ووقع على رجليه يقبلهما ناسيا عزة نفسه ووقاره وقال مسترحما

- بربك ياأخي عاود أمير المؤمنين ، فان الشرب قد حمله على ذلك بل أمهلني الليلة فانه نادم عن قوله غدا

- تناديني الآن بقولك ياأخي و كنت قبل اليوم تأنف من مصافحتي . انني الآن لا أرحمك ولا أرحم شبابك ، قد أمر الخليفة أن تموت الليلة وليس لدى سوى هذا الامر

- لتكن حياتي فداء الخلافة ، ليكن الموت جزاء اخلاص دام ثمانية عشر عاما وانما أريد أن أعرف منك أمراً واحدا قبل قتلي أريد أن أعلم ذنبي الذي استحق عليه الجزاء

فنظر اليه مسرور شزرا ثم فاه بهذه الكلمة :

- العباسة

ما كاد جعفر يسمع بذلك حتى قام من مكانه مدهوشا وقد لمعت فى سماء مخيلته فكرة واحدة هى أن يموت فداءها إذ ربما أنقذ العباسة بموته فقال :

- دعنى أدخل دارى فأوصى

فنظر اليه الجلاد بغضب وقال

- لاسبيل الى ذلك

لم يطق جعفر صبرا على أثر هذه الجملة الاخيرة فهاجت أعصابه وهجم على مسرور متمردا يريد خنقه إلا أن الجلاد تمكن من أن يتملص منه وفر الى زاوية من الغرفة وكان يعلم بأن العباسة مائتة لا محالة فصاح يقول

- قد قتلت السيدة العباسة

وقعت هذه الجملة كالصاعقة على رأس جعفر فهدت كل قواه وأفقدته الرشد والوعي فهرع نحو الجلاد جاثيا متمتما هذه الكلمات : .

- ما انتظارك اذن ، لماذا أعيش بعدها ، عجل لتريحنى من هذه الحياة

هكذا سلم نفسه لجلاده وعلى هذه الصورة المفجعة قتل جعفر البرمكى بالغا من عمره ثمانية وثلاثين حجة فى عام ١٨٧ من الهجرة

- بعد أن أخذ مسرور رأس جعفر قدمه للرشيد على وسادة من الاطلس فأمر بتعليق تلك الرأس التى أحب صاحبها وصادقه زمنا ، على جسر بغداد وأن تحرق بعد ذلك مع الجثة وان يقتل كل من يتشدق بكرم البرامكة ومروءتهم ومن يرثيهم بعد نكبتهم . أما منصب الوزارة فقد اسند بعد جعفر الى عدوه اللدود الفضل بن ربيع حاجب قصر الخلافة سابقا

ومن عجيب ما وقع فى ذلك ماروا، العمراني المؤرخ قال حدث فلان قال :

«دخلت الديوان ، فنظرت فى بعض تذاكر النواب فرأيت أربعمائة الف دينار ، ثمن خلعة لجعفر بن يحيي الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى ، لاحراق جثة جعفر بن يحي فعجبت من ذلك»

هكذا يريد القدر ومن يستطيع الوصول الى حكمة ذلك ؟

مسكين أنت ياجعفر قد صرت مظهراً لقول القائل

«ان كان ياقلب نصيبك الظلم والعسف فى هذه الحياة فقد تنالهما من الاصدقاء قبل الاعداء »

الفصل السابع

على أثر هذه الجناية قام الرشيد ومعه مسرور الى قصر أخته العباسة وكانت فى الطابق الاسفل لم تدلف الى فراشها بعد ، تعد معدات السفر الى خراسان فى اليوم التالى ولقد دهش أهل القصر من حضور الخليفة فجأة بعد نصف الليل فهرعوا الى العباسة مذعورين يختلج الخوف فى أفئدتهم يخطرونها بالامر

وقد اقتربت وصيفتها التى لم تفارقها طول الحياة ترجوها النزول من الشرفة الى الحديقة فالهروب عن طريق الدجلة إلا أن العباسة اكتفت بأن تقول :.

ـ بنات هاشم لا يعرفن سبيلا للهروب

قالت كلمتها تلك وقامت من فورها لتستقبل أخاها وتلاقت معه فى أول ممشى القصر فسلمت عليه باحترام إلا أن الرشيد لم يحاوبها بل ظل يسير ساكنا حتى الغرفة التى اعتاد أن يجالسها فيها وبعد ان جلس على مقعد قال لاخته

ـ أوصدى الباب

أوصدت العباسة باب الغرفة وعادت هادئة ساكنة وكان الرشيد ينظر الى وجه اخته مدهوشا وقال لها :

- أتعلمين سبب مجيئي اليك الليلة ؟ إن كنت جاهلة ذلك فها أنا ذا مخبرك . جئت لاسمع من فمك مخالفتك لي وخيانتك لبني هاشم . ما أنت بعد الآن أختي . قولي ما تريدين ان تقوليه قبل ان تفارقي الحياة .

فأجابته العباسة بهدوء بال

- لم أرتكب أولا مايشين بسمعة بني هاشم ولم أخالف ثانيا أمرك ولا اهاب الموت كما تعلم . انني انا وانت من اسرة واحدة رغم انكارك ولكنني لم افهم ماتريد ان تقوله فهل لك ان تفصح ياأمير المؤمنين ؟

- لقد فات أوان التزييف . اعترفي ليتم كل شيء فاني عالم بالامر وقد سمعت قصة جعفر ولا أستطيع ان أصفح عن مخالفتك لأمري واختلاطك بجعفر ، ذلك المملوك الفارسي ولا يمكن أن أنسى تلاقيكما معاً . انني نافر منك فيجب أن تموتي

بهتت العباسة ووقفت جامدة وسط الغرفة لا تبدي ولا تعيد ولا تستطيع أن ترفع عينيها من وجه أخيها المتقد بنيران الغيظ والغضب فصاح الرشيد يقول :

- تكلمي انني منتظر لجوابك .

فأجابته بصوت متهدج كأنما كانت تصحو من كابوس مريع

- انني حليلة جعفر أحببته واعتمدت عليه . وما أحللته من نفسي

هذا المقام الالأ جلك ولما فيه من مزايا ومواهب، فاذا كان ذلك حراما فانقض على حياتى إنى بين يديك وانى أخطرك بأمر فيه صالحك ونفعك. لا تقتل ذلك الذى تقول انه مملوك فارسى، ذلك الذى صير بغداد والدولة على نحو ماترى ورفع من شأن البلاد [1]. انك ان

---

(١) صدقت الاميرة فيما تثبته هنا على لسان العباسة حقا ان جعفر هو الذى رفع من شأن بغداد وجعلها عاصمة الخلافه، مهد الحضارة ومهبط المدنيه والعمران. لقد أسرف الرشيد فى ظلم البرامكه ونسى آثارهم فى تنظيم الدولة من عهد جدهم خالد. ألم يكن خالد من أكبر اعوان ابى مسلم فى نقل الدوله من الامويين الى العباسيين، تناسى الرشيد في نكبتهم ما كان من نجدة خالد لجده الى جعفر المنصور عند ما قتل ابامسلم فثار الفرس والاكراد عليه ناهيك بما كان من تدبير شئون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحي وحفيده الفضل وجعفر البرامكة كانوا جمال الدوله وقوام ابهتها وكانت بغداد ملأى بآثار فضلهم وجهودهم. أقاموا فيها المكاتب وحلقات الدروس ومنازل الجند والملاجيء ومجالس القضاة وغرف الشرطه.

روجوا العلم والفلسفة وشجعوا أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس بما كانوا يبذلونه لهم من الاعطية. وما ينفقونه في هذا السبيل من الرواتب وكفى يحيى بن خالد فخراً أنه أول من عنى بنقل المجسطى من اليونانية الى العربية.

سعوا فى جمع الكتب من الهند وسواها واستقدموا نطس الاطباء من مختلف البلاد لترويج صناعة الطب ويكفى الفضل بن يحيى من

فعلت ذلك يذكرك التاريخ ظالما متعسفا ويذكر ايامك بالعار . إن كنت تريد ضحية فها أنذا . سكن ثائرة غضبك بالقضاء على حياتى ، ولكن انا ماخالفت لك أمرا . اذا كان احترام عقد أمضيته انت بيدك بعد خيانة فاتهمنى . تذكر المولى واخش الآخر . ان العدل الالهى سيذكرك بموقفك هذا

فنزع الرشيد من مكانه حانقا وعيناه تتقدان بنيران الغيظ وهجم عليها يقول :

- قد جاوزت الحد . ألمثلى هذا القول . رباه لا أستطيع احتمالا . أنت مجرمة فيجب أن تموتي . كنت قد قيدت العقد بشرط أنت الآن تتجاهلينه

- كلا لم أنسه ولكن هل هو شرط مشروع ؟ أتجوز أمثال هذه الحيل في ديننا الحنيف ؟ لم أرتكب أمرا يخالف الشرع وانما أنت الذى تريد أن تحرم ما أحله الله . ألا اتق الله فى نفسك ياهارون أين ايمانك ؟ ألم ننشأ معا ؟ الم نعطف على بعضنا منذ الصغر إن قتلتنى أذهب ضحية على مذبح غرورك . أما جعفر فأنت تعلم شهامته ومزاياه حق العلم ولن تجد من يسد فراغه فان كنت مصمما على ضحية فها أنذا بين يديك . إنزل سوط غضبك

الاثر الجميل فى عمران بغداد أنه أول من سعي فى عمرانها وانه أول من سعي فى استخدام الكاغد (الورق) فانشئت له المعامل فى بغداد

على برىء واحد ولا تلوث يديك بجريمتين

لم يتمالك الرشيد نفسه عند سماعه الجملة الاخيرة فصاح مزمجرا :

ـ أدفاعا عنه أمامى . ستموتون انتم الثلاثة : أنت وهو وحسن . انا الخليفة لامرد لامرى

فحرك اسم (حسن) عواطف الامومة فى نفسها فارتمت عند قدمى اخيها تصيح

ـ بربك اصفح ولا تقتل طفلا بريئا معصوما يا أمير المؤمنين . انك والدفاتق الله ، انا لا أطلب الصفح من أخي انما أرجو الغفران من الخليفة هارون الرشيد

كانت العباسة تبكى بكاء مراً . وهى لم تفقد حرارتها حتى تلك اللحظة ولكنها أضاعت كل شىء واظلمت الدنيا فى عينيها واصبحت يائسة مفككة الاوصال عند ماذكر مقتل ابنها

لم يعبأ الرشيد بتوسلاتها ولم يحركه بكاؤها بل قال :

ـ كل هذا لايجدى . قد قلت كلمتى الاخيرة

ونادى مسرورا بعد ذلك ففهمت العباسة قصده فاعتدلت ووقفت شامخة برأسها تستشهد وتستغفر

دخل مسرور وانحنى أمامها ولكنها لم تحفل به ولم تتنازل الى رد السلام وانما حولت وجهها الى الكعبة ، مقر ابنها الحسن .

. وقد كانت تظنه على قيد الحياة ، تدعو المولى أن يكلأه بعين عنايته وتحولت بعد ذلك نحو قصر جعفر وفي لحظة أطار مسرور رأسها بضربة واحدة من سيفه فوقع على الارض متدحرجا حتى اقدام الرشيد . . ؟

تلكما العينان الجميلتان كانتا تنظران الى الرشيد تفكر انه بقضاء الآخرة عند ما ينصب ميزان الاعمال. فارتعشت روحه داخل جسده وقام من فوره يأمر مسرورا بان يعجل فيماند به اليه. فوفد الغرفة عشرة رجال حفروا وسطها حفرة وارووا فيها الجثه وبعد اتمام العملية أمر الرشيد بقتلهم وبأن ترمى أجسادهم في الدجلة .

عند ماتمت الفاجعة وخرج الرشيد من غرفة ضحيته كان لمعان الصبح قد بدا وكانت أضواء الصباح الوافدة الى الغرفة من حديقة القصر تنير هذا المرقد الابدى بهدوء وجلال

انقضى عمل الرشيد والتأمت جراح غروره فأدار أكرة الباب استعداداً للخروج ولكن ما كاد يفعل ذلك حتى ارتد قليلا من تأثير أنوار الصباح ؛ هجم الضوء الى الغرفة من خلال الباب وملأت أرجاءها أشعة الشمس الآخذة في البزوغ مارة في طريقها الى الغرفة بالورود والزهور وخمائل القرنفل والياسمين فتصنع من ألوانها وروائحها الزكيه باقة معنوية تضمها باحترام اجلال فوق مضجع العباسة

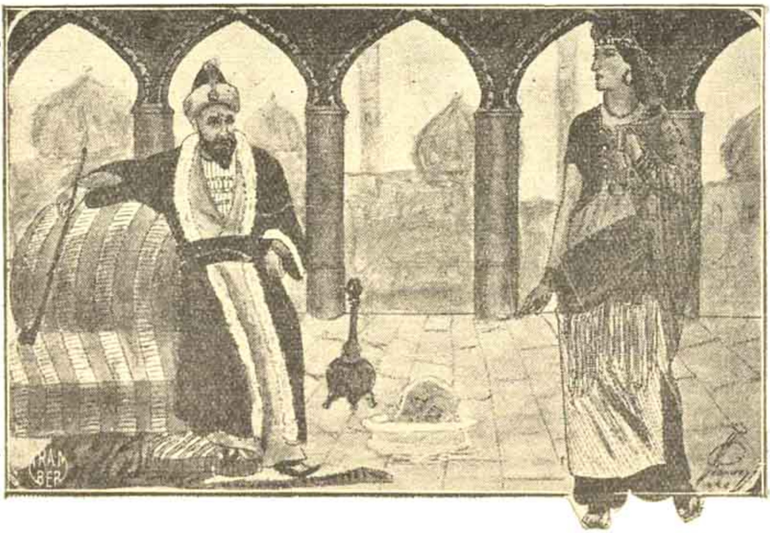

العباسة للرشيد : لا تلوث يديك بجريمتين

كانت الطبيعة رغم اشراقها كئيبة مطرقة ، هادئة يكسوها جلال الموت كأنما هى أيضا تبكى العباسة وقد كانت زهرة من زهراتها

لو وقع مثل هذا الغرور فى أوائل الاسلام لدهشنا ووقعنا فى مهاوي الحيرة غير أن حدوث هذا العسف فى القرن الثانى من الهجرة فى ذلك الدور العظيم يأخذ بيدنا الى مناهج التفكير العميق. اننى لاأتحاشى تدقيق ومحاكمة هذه الفاجعة المؤلمة التى سودت صحائف الرشيد فالزمان قد قاضاه

ان هارون الرشيد ، رغم صفاته وفضائله ، رغم مزاياه ومناقبه قاتل سفك دماء جعفر ولم يقدره حق قدره

قد لوث يديه بدماء بريئين فلا جوده ولا كرم طباعه ولا شهرته ولا استفحال نفوذه تشفع له أو تزيل أثر الدماء من يده

عند ما نقرأ تاريخ حياته تثور نفوسنا وتتمرد ، إنما نعلم أن مقابلة الاحسان بالاساءة كانت من صفات الاقدمين ، لاسيما أيام حكومتى روما واليونان ولكننا قد نعذرهم ونتشبث فى ايجاد المبررات لهم لانهم كانوا محرومين من نور العدالة الاسلامية أما الرشيد فمسلم ومن بنى هاشم فكان لزاما عليه أن يتحلى بالمروءة ولكنه أبى إلا أن يظهر بمظهر المستبد المغرور .

واني كامرأة رأيت من واجبي ان انقل سيرة الرشيد المعروفة كثيرا وتاريخ حياة جعفر المعروف قليلا وحياة العباسة المحاطة بالغموض والابهام على هذا الوجه البسيط

٤

الملكة عصمة الدين

﴿ شجرة الدر ﴾

الفصل الاول

الزمن مقياس الحياة ، ولولا الحياة لما كان الزمن ، ولما كان للأشياء بدايات ونهايات .

ونهاية كل أمر بداية أمر آخر ، فاذا اضمحلت أمة من الامم وامحى من صحيفة البقاء كيانها نشأت على أطلالها أمة أخرى، وكيان آخر . فكلمة (الزمان) من إختراعات الانسان ، وضعها ليقيس بها الحياة ، وليعبر بها عن سلسلة من الوقائع والحوادث والشئون ، طويلة الأمد مختلفة الحلقات . فلهذه الكلمة مدلول وليس لها وجود .

وحياة كل أمرئ زمان قائم بنفسه ونهايه زمنه بداية لحياة أخرى .

هاكم شجرة الدر التي نقص اليوم سيرتها الغريبة فقد كان بدء حكمها نهاية زمن جليل وعصر عظيم ، أجل فهي بدأت حكمها عند ما أفل نجم حكومة الأيوبيين العظام . وقد كان انبثاق هذا النور فوق أطلال الحكومة الأيوبية أول نجمة من نجوم الأمل في سماء دولة المماليك . لقد أنارت تلك الشرارة عصرها فكانت شجرة الدر حلقة الاتصال بين الايوبين والمماليك وتمكنت بمهارتها من اظهار شخصية ذات رونق وجلال :

مصائب قوم عند قوم فوائد . كانت شجرة الدر ناصية ، وثرثة

بين مخدرات الاسلام . فهى فتاة تركية عالية القدر ، جميلة الصورة جذابة الملامح . ذات فراسة وتدبير . على علم واسع ومعرفة تامة لها عزيمة ماضية وجأش ثابت فاشتهر أمرها وطار صيتها فى اقاصى البلاد والأمصار .

واذا استثنينا بلاد الهند . فهى المرأة الاولى فى الاسلام التى تقلدت الملك وادارت دفة الحكم بمهارة ودراية . لم يكن من المألوف المعهود فى بلاد الشرق أن تحكم المرأة وتتولى زمام بلادها بنفسها مباشرة ولذلك كثيرا ما قرأت قصة حياتها مشفوعة بالاستغراب بين طيات بعض الرسائل والمخطوطات والدهشة التى تملكت قلوب كاتبيها من أن امرأة تتوصل الى الحكم بلقب الملكة عصمة الدين .

ان وصولها الى امر كهذا غير مألوف من أبناء قومها دليل فطنة ودراية وذكاء فائق الحد . أجل فمن من النساء المسلمات توصلت الى ضرب النقود وقراءة الخطب على المنابر باسمها ؟ . .

كانت فى أول أمرها جارية ظريفة يحبها الصالح نجم الدين الملك السابع فى حكومة الايوبيين فولدت له غلاما سمى خليل وتزوجها بعد ذلك وأشركها فى الحكم . كان الملك الصالح يجلها ويخصها بالاحترام ولقد أظهرت قدرة خارقة للعادة فى إدارة الامور ، أدهشت معاصريها

شاركت شجرة الدر زوجها فى ادارة الحكم منذ كان وليا للعهد ، يحكم دمشق من قبل أبيه «الكامل» فأمدته برأيها وأعانته بفكرها وكانت الزوجة الصالحة، شريكة العمر وصديقة الحياة، فبدأ يشعر بقيمة هذه المعونة الأدبية ويقدرها حق قدرها ويسر بها . (١)

دار الزمان دورته ومات «الكامل» فاضطر الملك «الصالح» الى العودة الى مصر، مقر العرش والحكم ، تاركا وراءه ذكريات لذيذة من أيام الهناء بين رياض دمشق وحدائقها الغناء . هنا بدأت متاعبه وجهوده ، فقد كثرت الفتن واشتدت الغارات فى أول توليه الحكم فكان لا ينتهى من قمع فتنة حتى يرى نفسه أمام غارة خارجية تهدد كيان البلاد فيعمد الى صدها وكبح جماح الذين يريدون بمصر شراً ، ولا يكاد يدفع ضررها حتى يسمع باندلاع لهيب فتنة أخرى فى قلب البلاد فيسرع نحوها . كل هذه المشاغل والمتاعب صيرته قيد جواده لا يفارق صهوته ليل نهار .

كانت فتنة الشام أشدها مراساً وأذكاها ناراً فحشد جنوده وطار الى مكان الفتنة على رأس جيشه وبعد أن كابد المرائر فى سبيل قمعها انتصر على العاصين وتمكن من الضرب على أيديهم وتأديبهم ولكن لم يتيسر له أن يجنى ثمرة النصر وأن يهنأ بسعادة الفوز ، لأنه أصيب بداء عضال أقعده فى فراشه شهوراً طويلة .

---

(١) الدر المنثور

كان يتوق الى رؤية وطنه مصر ويذوب شوقاً وحنيناً الى نيل بلاده العذب ، فيقعده الرغبة في انجاز ماندب نفسه اليه من القضاء على الفتنة ولجتثاثها من أصولها وعدم القيام من دمشق قبل تمام الشفاء . وبينما هو يتمامل على فراش الأوجاع والاوصاب ، بين لذيذ الأماني والأمال، اذا برسالة من زوجته شجرة الدر التي كانت تحكم البلاد أثناء غيابه ، تخبره فيها بقيام الصليبين من قبرص متوجهين الى مصر ، فقام من فوره محمولا على هودج حتى وصل المنصورة في بضعة أيام قاسى أثناءها أشد المتاعب والآلام .

الفصل الثاني

عام ٦٤٨ من الهجرة

أصيب لويس التاسع ملك فرنسا بمرض عجيب ، أعجز نطس الاطباء ومهرة الحكماء في بلاده ، فصرفوا كل مجهوداتهم الفنية وأعملوا كل ما استطاعوا من حذق وفكرة في سبيل الوصول الى تشخيص المرض ولكن ذهبت أتعابهم وجهودهم أدراج الرياح . لم يتمكنوا من تخفيف آلامه وأوصابه فوقعت فرنسا في مهاوى اليأس وارتبكت لا تدرى سبيلا الى نجاة الملك مما وقع فيه الى أن خطر ذات يوم ببال (بلانش دوكاستيل) ام الملك و (مرغريت دوبر وفانس) زوجته أن يجمعا كبار القسس ورجال الدين ليعقدوا مجلسا للمشاورة فيما بينهم فقرروا أن توقد الشموع في كل بيت وأن تقام الصلوات في الكنائس على الدوام وسرعان ما أقبل الكبراء والأمراء على تنفيذ الفكرة ، قدوة لمن دونهم من العامة ولم تمض فترة من الزمن حتى كان الجميع ناسجين على ذلك المنوال من ايقاد الشموع والابتهال في الكنائس بالدعوات . . ولكن ظل الملك رغم تلك الوسائل أسير الفراش ، يعانى آلام مرضه الوبيل ودائه العضال . لم تجد الشموع نفعا ولم تنفع دعوات القسس وابتهالات الشعب في

رد القوة والحياة الى ذلك اللسان المشلول والجسم المفلوج فاستمر على حالته من الوهن والجمود كأنه صنم ملقى تحت اللحف والأردية

اشتد قلق الشعب ودب اليأس فى قلوب القسس فكنت تراهم فى اسواق المدينة وشوارعها يقطعونها طولا وعرضا بمسابحهم الطويلة وثيابهم الكهنوتية ، وقد أيقنوا بأن شفاء مليكهم من رابع المستحيلات لقد بدأوا يشعرون أن الملك مقضى عليه بالهلاك وأن الموت على قاب قوسين منه أو أدنى بعد أن جربوا كل تعاويذهم وأدعيتهم فذهبت أدراج الرياح . لقد يئس الكل الا الملك فقد بقيت فى صدره بقية من نور الأمل تخفف من لوعته كان لا يستطيع أن يأتي بأدنى حركة أو يحرك لسانه بكلمة ولكن قواه العقلية ما زالت كما هى فجعل يتوسل الى ربه بطلب الشفاء ويغالب المرض بقوة ارادته ، معاهداً ربه بنذر جعله رهن شفائه وقيد تخلصه من أسر بلواه . فقد أنذر وياللهول ما أنذر ! . . . أنذر أن ينقذ بيت المقدس من المسلمين ويخلص تلك الاماكن الطاهرة من أيديهم القذرة ان تم له الشفاء وكتب له ربه العافية والحياة الأمل حياة واليأس موت ، فقد دب دبيب الحياة في تلك النفس الحائرة الحائمة حول الامل وأصبح الملك عقب ابتهالاته النفسية يتماثل نحو الشفاء شيئاً فشيئاً موقناً أن نذره الغريب كان سبباً فى شفائه زاعماً أن المولى لم يمن عليه بالشفاء

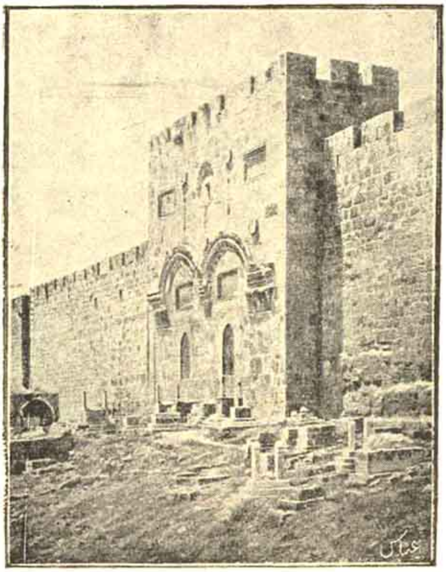

بيت المقدس

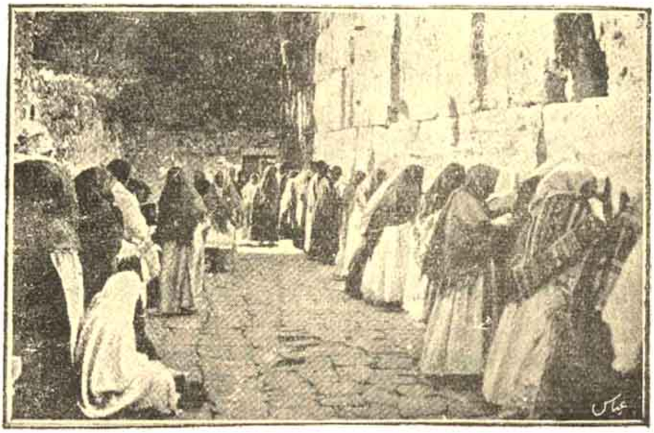

اليهود فى بيت المقدس

الا لعزمه على تطهير بيت المقدس من أيدى المسلمين الملوثة .ولقد صادفت هذه العقيدة الفاسدة هوى فى نفس المسيحيين في زمن كان فيه بيت المقدس محفوفا بعناية المسلمين ورعايتهم اكثر من أى وقت آخر(١) لأن المسلمين وقتئذ كانوا أشد تمسكا بالدين، هذا الى أنه بيت محجوج من جميع طوائف الشرق مرموق بعين التجلة والاحترام من الجميع لبلاد الشرق مزية لايمكن انكارها مع مالها من مثالب ومساوى ، تلك المزية هى احترام الشرقيين للمعابد وتقديسهم الأماكن المقدسة هذه حقيقة لايمكن نكرانها فاحترام الشرقى لكل مكان مقدس(٢) غريزة كامنة فى نفسه ورثها عن آبائه وأجداده جيلا بعد جيل .

كان البيت المقدس وما زال الى يومنا هذا مسجدا محجوجا من كافة أقطار العالم الاسلامى يزورونه ويقدسونه ويقيمون فيه شعائر الله ويحافظون على ما فيه من الآثار والتحف محافظتهم على

---

(١) فى بيت المقدس اليوم من التصليحات التى تمت فى أيام مختلفة من عصور الحكم الاسلامى مايدل على اهتمام الخلفاء والامراء من كافة أقطار العالم الاسلامى بالمسجد الاقصى .

(٢) قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

أعز الاشياء واحبها لديهم تلك الايدى الملوثة حسب زعمهم السخيف وقيامهم الباطل طالما رفعت ماتهدم من أركانه وأصلحت ما تصدع من بنيانه فأعادت له الجدة زمنا بعد زمن وجيلا بعد جيل ليكون لسانا ناطقا وشاهدا عادلا على احترام المسلمين عامة لمسجدهم الاقصى اما فكرة التخريب فلم تخطر على بال امير مسلم مهما تناهى فى الظلم واشتد فى الجبروت والعسف أيجوز اذا والحال على ما فصلناه تضحية المئات والالوف على مذبح التعصب ؟

لقد أزهقوا فى حرب مقدسة واحدة ماينوف عن سبعين الف من المسلمين الآمنين فى ديارهم، فأصابوا من أعراضهم ومثلوا بأجسادهم حتى بلغت بهم الفظاعة الى حد استخراج مرائر القلوب ووضعها فى القوارير ليستصحبوها الى بلادهم كأدوية ناجعة لبعض الامراض حسب زعمهم الباطل

لقد امر الانجيل بالرحمة والشفقة وان يدير المرء خده الايسر لمن يصفعه على خده الايمن فهل صدعوا بأمره وهل المسيح هو الذى اوحى اليهم بأثارة تلك الحروب الشنيعة أيرضى منقذ الانسانيه والآمر بالاحسان والحنان أن يموت الالوف من أهل الهلال فى سبيل غرور حملة الصلبان !

اما وقد أبل لويس التاسع عشر من مرضه فأرسل الى البابا يعرض عليه عزمه على تنفيذ نذره وانه مستعد لتجهيز المعدات

لذلك وما كاد يصله الاذن حتى أعد الحملة الصليبيه السابعة وقوامها خمسون الفا من الجنود ومئتى قطعة من السفن ولما تم له ما أراد ابحرت سفنه بتلك العدة وذلك العدد ووجهتها جزيرة قبرص

* * *

يرى القارىء من خلال ماشرحناه ان الصليب ينافس الهلال منذ زمن بعيد ولقد أصبحت من القواعد المقررة لديهم ان الصليب قد يتسيطر فى كل مكان ينير فوقه الهلال اما الهلال فلا يجب أن يضيء فوق مكان يحكم فيه الصليب لأن الصليب لا يريد ان يرى رقيبا له ولأن الخفافيش يعميها ضوء الهلال ان الزور والبهتان لا يدومان لهما سلطان ولا يطغيان على الحق أو يغمطان نوره اما القوة فقد تضغط على انفاسه فحسب

الشرق اكبر حلما واكرم وفادة وأشد تسامحا من الغرب من كل الوجوه

لقد عاهد ملك فرنسا ربه ان يهاجم الصليب فى وقت نأسف اليوم على مثله لم تكن اذ ذاك ثمت قوه تستطيع ان تصدع عصبيتنا الاسلامية او تقف فى وجه وحدتنا الدينية لقد فشلت كل محالفة عقدتها أوربا ضدنا وذهبت مساعيهم التى بذلوها فى سبيل تشتيت شملنا أدراج الرياح ،اذ كانت تربطنا ببعض نحن اهل التوحيد عروة وثقى برباط معنوى واحد كنا نصد كل قوة بقوة اشد منها هى

قوة الاتحاد فكانت كل صدمة منهم تتكسر وتتبعثر كقطع الزجاج فوق سور منيع هو سور عقيدتنا

* * *

أقام لويس التاسع أمه على منصة الحكم بدله وسافر الى قبرص فى بضع اسابيع ومعه أقاربه وزوجته ووصلوها فى موسم الشتاء ولبثوا فيها حتى انقضائه وكان فرسان الجزيرة قد أخذوا فى تعذيب من عثروا عليهم من أسرى المسلمين بأنواع العذاب وألوان الضيق وكانوا يكرهونهم على قبول النصرانية بامر وكيل البابا فيخلى سبيل من يقبلها حذر الموت وتقطع اوصال الذين يرفضون تغيير عقيدتهم

وقع أكثر هؤلاء الاسرى المساكين فى أيدى الفرسان من طريق القرصنة وقاسوا عسفا شديدا وظلما مريرا طول مدة الشتاء حتى أنهم لم يتركوا نوعا من أنواع التعذيب المعروفة فى القرون الوسطى دون تجربتها عليهم وبعد أن أقام لويس وحاشيته على مثل هذا التشفى وازهاق الانفس البشرية خلال ستة اشهر قام بجنوده مشرعا بسفنه نحو مصر ووجهتهم بيت المقدس لتطهيرها من أيدى المسلمين

الفصل الثالث

وصل الملك الصالح مدينة المنصورة ، مضنى الجسم ، مريضا منهوك القوى فلزم تواً فراش المرض . كان يتألم من دمامل فوق ركبته ومن نزلة صدرية وفدت اليه أثناء الطريق [1] وكانت حرارة الجسم والسعال الطويل ينذرانه بخطر السل فيئس من حاله ووقع فى وحدة الاضطراب اذ كان لا يستطيع الاشراف بنفسه على تعبئة الجيش وما يلزمه من المعدات ومع ذلك فلم يأل جهده فى اصدار الاوامر المتتالية والخطط الحربية لتحصين دمياط واعدادها للكفاح والدفاع .

لقد أتم تحصين (دمياط) كما يجب وجهزها بذخائر ومؤنة تكفى حاميتها شهوراً عديدة ثم شرع بعد ذلك فى اعداد الاساطيل من القاهرة وحشد الجنود المصرية عند الساحل الغربى من دمياط تحت قيادة أمراء مصر ووجه القيادة العليا الى الأمير فخر الدين يوسف [2] ...

* * *

---

(١) الخطط التوفيقية

(٢) المقريزى

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر صفر عام ٦٤٨ هجرية حاصر الاسطول الفرنسى ثغر دمياط . ثم طلب الملك لويس - جريا على عادة الصليبين - تسليم الثغر من حاميته وعند ما رأى علامات المقاومة وجه خطاب تهديد الى الملك الصالح ، نجم الدين الايوبى قال فيه :

« انك لتعلم أنى حامى ذمار المسيحية كما أنك ولى أمر المسلمين ولقد سمعت بلا ريب أن مسلمى الاندلس قد أصبحوا اليوم أيضا فى قبضة يدنا ، مستظلين برايتنا وهم يهرعون الينا من حين لآخر زرافات ووحدانا يقدمون الينا أموالهم وما ملكت أنفسهم رغبة فى رضانا فنسوقهم كالأغنام ، نقتل ذكورهم ونترك نساءهم أيامى نسبى أولادهم وبناتهم ونصير ديارهم خرابا بلقعا فاعلم ذلك إن كنت تجهله ونصيحتى اليك أنى سأحاربك وأقاتلك مهما بذلت لى من وسائل القرب ، انى مهاجمك حتى لو أقسمت بين النصرانية وارتديت ثياب القسس وحملت الشموع أمامى. إما أن أفوز عليك فأجعل بلادك تحت قبضتى وإما انك تغلبنى على أمرى ها أنذا مخبرك فلا تنس ان جنودى كثيرة ورجالى لا يحصى لهم عدد يملأون الوديان والجبال وينافسون الحصى كثرة وعددا . سوف لا يغمد هؤلاء الرجال سيوفهم بل سيهرعون نحوك لهلاكك وبوارك »

لم ينته الملك الصالح من تلاوة الخطاب حتى بدت على وجهه

علامات التأثر وطفرت دموع الألم من عينه ثم ناوله بعد ذلك الى القاضي بهاء الدين الزهراوى الجالس عن يمينه ليقرأه وبعد التشاور فيما بينهما و بين رجال المعسكر أرسل الرد التالى :

« بعد البسملة والحمدلة أخذت كتابك وانك لتفخر علي بكثرة جنودك وتهددنى بمالك من عدة وقوة الافلتعلم أننا رجال سيف لانخشى امراً فى سبيل كلمة الله فمن مات منا شهيداً قام مكانه مؤمن آخر ومن قصدنا بسوء فانما هو واردالى حتفه بظلفه ألا تبصر عيناك المغرورتان حدة سيوفنا وعظمة ابطالنا ؟ أتعمى عن رؤية القلاع والسواحل التى فتحناها؛ وديار الاعادى التى أبدناها ؟ لو تمعنت فى أمرك لظهر لك سخف رأيك وتكليف نفسك مشقة لاطائل تحتها ولا مطمع من ورائها . لوترويت وتبصرت لعلمت أى منقلب ينقلب الظالمون ؟ قال الله فى كتابه العزيز وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »

قرأ لويس التاسع هذه الاسطر النارية فجمع رجاله فى الحال وشاورهم فى الامر وما كادوا يشيرون عليه بنزول الجنود الى البر حتى وطئت جنوده أرض مصر وأمامهم وكيل البابا يحمل صليبا كبيرا ، ومن ورائه لويس التاسع يخفق اللواء المقدس فوقه وفوق عائلته ومن خلفهم الحاشية والجنود :

***

بدأت الحرب مساء اليوم العشرين من شهر صفر واشتدت هجمات السفن الاسلامية على الاسطول الفرنسى شدة كادت تؤدى الي فشل الصليبيين وفى تلك الساعة الرهيبة ، التى كان المسلمون فيها يقاومون أهل الصليب بصدورهم ويتلقون هجمات العدو بثبات وعزيمة صادقة ، تراجع قائد المسلمين الأمير فخر الدين بلا سبب وأخذ يولى الادبار وما كادت الجنود الاسلامية تشعر بفرار قائدها حتى تولاهم الاضطراب ولاذوا أيضا بالفرار اسوة بقائدهم فساد الهرج والمرج بين صفوفهم واختلط حابلهم بنابلهم مسرعين مجدين فى الهروب بكل ما فيهم من قوة حتى وصلوا (اشمون) أما الاهالى فقد ذعروا لهذه الحالة فحملوا ما وصل أيديهم من مال ومتاع متعقبين أثر الجيش ولم يرتفع ستار الليل عن دمياط حتى كانت خاوية على عروشها ، ليس فيها انسان من سكانها . أما الصليبيون الذين لم يروا أمامهم مهاجما أو مدافعا اشتبهوا فى الامر وخيل اليهم ان هناك دسيسة مدبرة من المسلمين لايقاعهم فى فخ منصوب فقربوا من المدينة وجلين ، حذرين يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى وعندما شعروا بخلوها تقدموا نحوها متجاسرين

ودخلوها دخول الظافرين الفاتحين .

ما اشد دهشتهم أمام ذلكم اللغز . لقد ترك الجيش المذعور كل سلاحه وخلف الاهالى أقواتهم وارزاقهم التي ادخروها لستة أشهر :... لم يبق فى المدينة انسان واحد ولكنها كانت مملوءة بالذخيرة والسلاح فما هذا التناقض لقد غنم الصليبيون واحرزوا الفوز ودخل صليبيو القرن السابع مدينة دمياط دخول الظافر كما دخل صليبيو القرن العشرين مدينة (قرق كليسا)[1] أيخاف أهل الهلال من الصليب القلوب الطافحة بالايمان ليس فيها متسع للخوف.

التاريخ بعيد نفسه ؟.. ما كاد الصليبيون يستولون على دمياط حتى حولوا جوامعها الى كنائس واستتبوا فى ربوعها آمنين مطمئنين وقد تملكوا أحكم القلاع المصرية فى زمن وجيز وفى فرصة غريبة ما كانوا يحلمون بها وهاهى القاهرة قد اصبحت قيد ذراع منهم يحملون عليها متى شاءوا ؟ اسقط في يد الملك الصالح وفت في عضده اشتد يأسه وزادت آلامه واوجاعه . لكنه هب فى الحال مدفوعاً بعزيمة صادقة ووقف امام الجيش الفار يصد تياره الى ان تمكن من ذلك . .

ولما استتب له الامر جمع امراء الجنود الهاربة وامر باعدامهم

---

(١) يلاحظ ان سمو الاميرة كتبت هذه القطعة أثناء حرب البلقان لان الجزء الاول من الاصل التركي مطبوع سنة ١٩١٣

ـفى الحال حتى انه صلب فى ساعة واحدة خمسين من (سناجق) الجيش [١]

لقد وسم الامير فخر الدين بفراره وتقهقره هذا جيوش المسلمين بوصمة العار واضاع على المسلمين انواتا كثيره واموالا جمة ونفوسا زكية وقد وجه الملك الصالح همته بعد ذلك الى تحصين المنصوره وما بجوارها من القرى والدساكر ولكنه لم ينس ضياع دمياط فكان لا يكل عن تجزية الذين تسببوا فى الهزيمة كان يبذل دموع القلب اسى وحزنا كلما اختلجت فى نفسه حادثة تلك الخيانة ثم تمرد اتباع الامراء الذين نالهم العقاب وحاولوا العصيان والوقوف فى وجهه الا ان الامير فخر الدين تمكن من اسكاتهم واقناعهم موضحا لهم مرض الملك الصالح وقرب دنو الاجل من امير البلاد.

كان الامير فخر الدين مستحقا للعقاب والجزاء إذ كان اس البلاء فى حادثة الانهزام ولكنه تملص من العقاب بسهولة ولم يصبه اذى ...

لم يشتبك الفريقان عقب سقوط دمياط فى معارك حاسمة بل كان الحرب بينهما سجالا ، يتصادمان فى مواقع صغيرة ، وكان عدد الاسرى من الصليبين يتزايد ويتكاثر يوما بعد يوم وكان كلما

---

(١) احدى رتب القيادة فى الجيش حسب النظام التركي القديم وكلمة (سنجاق) معناها اللواء وهذه الرتبة هي نفس رتبة (أمير اللواء) الحالية.

تجمع نفر منهم أرسلوهم الى القاهرة وبدأ المسلمون يستردون قواهم ويجمعون شتاتهم شيئا فشيئا وقد أحرزوا فوزا فى بعض المعارك فقوى فيهم الامل ودب فى نفوسهم النشاط الى الاستعداد لمعركة حاسمة يطحنون فيها جيوش أعدائهم وهم على مثل هذا الحال من الامل والثقة واذا بالملك الصالح تشتد عليه وطأة المرض فى ليلة الأحد من اليوم الرابع عشر من شهر شعبان وما أشرقت الشمس فى اليوم التالى على حقول المنصورة التى تزين ضفتى النيل حتى كانت روح الملك بعيدة عن هذا العالم الفانى، بالغا من العمر اربعين عاما لقد كتموا خبر موته، حذر القلاقل وخشية اضطراب الجيش فنقلوا جثته سرا فى تابوت من المنصورة الى قصر النيل حيث كانت تسكن شجرة الدر ودفن في قلعة الروضة. لم يعلم نبأ الوفاة سوى شجرة الدر وبضع أفراد من المقربين المخلصين، اذ كانت الاميرة تخاف من اثاره الفتن والقلاقل فأرسلت الى رئيس الأغوات والى قائد الجيوش فخر الدين تطلبهما وأخبرتهما بما وقع وسردت لهما الاسباب التى حدت بها الى كتمان الامر فاستصوبا رأيها وأقراها على ما فعلت ثم قرر الثلاثة فى تلك الجلسة أن يرسلوا (آقطاى) أحد أمراء الجيش الى الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح وولى عهد السلطنة المقيم في (حصن كيفا) لاحضاره فى الحال وبعد أن أتمت الاميرة هذا الامر اذاعت بعض الاوامر والمنشورات

على الشعب وأخذت المواثيق والعهود على رجال الجيش بأن يطيعوا الملك الصالح ويقيموا على عهد الملك المعظم توران شاه بعده وقد كتبت الأوامر بخط رجل من حاشية البلاط يدعى سهيل إذ كان خطه شبيها بخط الملك وكما كان أسلوب الاوامر موافقا لاسلوب الملك نفسه حتى أنه لم يشك أحد فى أنها صادرة من الملك ومن هذه الاوامر أن يقرن اسم ولى العهد (توران شاه) بأسم الملك فى خطب الجمعة وأن تضرب النقود بأسمه وكانت الاطباء أثناء ذلك تتردد على المنصورة تغريراً بالناس وايهاماً لهم بوجود الملك على قيد الحياة وكانوا يتكتمون خبر موته ويذيعون عنه أنه في شدة المرض غير أن الخبر اتصل ببعض الجواسيس فنقله الى الصليبيين الذين اقامتهم الحادثة واقعدتهم وجعلتهم يتهيأون لغزوة كبرى .

أعد لويس عدته لمهاجمة المنصورة وتحرك اليها بجميع جيشه فالتحم الجيشان فى معركة خطيرة دامت طويلا وتلف عدد كبير من الطرفين وكان ضرر الاعداء أشد واخطر حيث مات ووقع في الاسر منهم عدد كبير وقد استشهد قائد المسلمين فى هذه المعركة فظلت الجنود الاسلامية تقاوم مضطربة بلا رأس يحركها وأيقن المصريون بما يهددهم من الخطر وشعر مماليك الملك الصالح بالنتيجة المؤلمة التى تنتظرهم اذا استولى الصليبيون على البلاد فقاموا جميعاً قومة رجل واحد للذود عن وطنهم . هؤلاء هم المماليك البحرية

وقد أطلق عليهم هذا الاسم لاقامتهم بالنيل فترأس الجيش أحدهم وهو (بايبورس) فجمع شتات الجيش وحمل على الصليبيين حملة بددت جموعهم وكسرتهم شر كسرة ففرحت مصر والمنصورة بهذا الفوز المبين وأقيمت الافراح وازينت الاسواق وتليت الدعوات شكراً للمولى على ما تولاهم من جميل فضله واحسانه ثم وصل توران شاه عقب هذا الانتصار فاعلن وفاة الملك الصالح وعين ابنه خلفاً له أما شجرة الدر التى تمكنت بمهارتها ودهائها من كتمان الخبر الى حين حضور ولى العهد وجهت اهتمامها الى اقامة المآتم حداداً على زوجها تاركة مقاليد الحكم فى يد توران شاه

الفصل الرابع

ما كاد توران شاه يستلم زمام الحكم حتى بدأ يهاجم الصليبيين أملا فى الخوض معهم معركة حاسمة ولقد بذل كل ما فى وسعه لاخراجهم وطردهم من الديار المصرية .

كان معسكر الصليبين فى دمياط ولكن معظم جنودهم كانت مقيمة عند ضواحى المنصورة وأشمون، فخط توران شاه خطة حربية تؤدى الى التفاف جيشه حول الصليبين وما كادت فكرته تتكلل بالنجاح حتى كان جيش الأعداء محصوراً وتحت قبضته .

أما الصليبيون الذين حوصروا بجيوش المسلمين من جميع أطرافهم فقد وقفوا فى وهاد اليأس وانقطعت الامداد والذخائر عنهم فباتوا فى حيرة من أمرهم ثم اشتد كربهم عند ما انتصر (توران شاه) على بحريتهم فى النيل وإغراق نحو خمسين من سفنهم أصبح الصليبيون وقد انقطعت مواصلاتهم فى ضيق واضطراب عظيمين وكان (توران شاه) يرجو من وراء اضطرابهم هذا أن يقضى عليهم القضاء المبرم فى مدة وجيزة .أما الجيوش الاسلامية الذين دبت روح الجرأة بين صفوفهم عقب الانتصارات الباهرة فانهم حملوا على أعدائهم حملة منكرة ،مدفوعين بقوة الايمان ثملين بخمرة

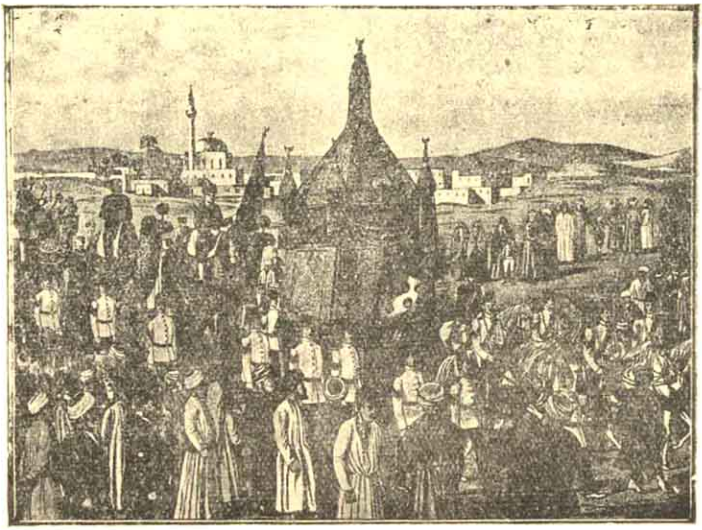

«المحمل المصري» البدعة الحسنة التي سنتها الملكة عصمة الدين «شجرة الدر»

بالفوز فشقوا صفوفهم وانهالوا عليهم يكيدون لهم ألوان الضرب والقتل حتى بددوهم وفرقوا وحدتهم شر ممزق .

دحر الصليبيون ولاذوا بالفرار ، مسرعين مهرولين في طريق دمياط ، ونسوا وهم مرتبكين ، مشتتين رفع احدى الجسور الموضوعة على النيل عند مقربة من أشمون فتعقب المسلمون أثرهم حتى نقطة قريبة من دمياط ، حيث وصل لويس وحاشيته الى تل صغير فصعدوه وماكاد المسلمون يبدأون فى محاصرتهم والالتفاف حول التل الذى اعتصموا به حتى طلب ملك فرنسا الامان وسلم نفسه مع رجال حاشيته وخمسماية نفر من جنوده

* * *

وقد وعد أثناء وقوعه فى الاسر بأن يسلم دمياط مقابل أن يترك المسلمون له بيت المقدس فلم يعبأ أحد بقوله بل ساقوه الى المنصورة ووضعوه اسيرا فى دار القاضي فخر الدين

قرر توران شاه بعد ذلك أن يقيم بفار سكور فجمع رجاله وجنده وذهب بهم جميعاً الى المكان المنتخب لمعسكره وهناك وجه اهتمامه لتشييد قصر فخم من الخشب على ضفة النيل ورفع بجانبه برجا عالياً جعله لمسكنه وملذاته الشخصية ، تلك الملذات التي انغمس فى تيارها ، ناسيا أمر الصليبيين وشئون الدولة .

كان يستقبل شمس يومه والكأس بيده وتغرب الغزالة عن حقول فارسكور وهو ثمل مضنى الجسم ، مفكوك الاوصال من كثرة الانهماك فى معاقرة بنت الحان ومنادمة الغلمان : كانت أيام حياته تمضى على هذه الوتيرة لا يعكر صفوها سوى عداوة متأصلة فى نفسه نحو المماليك البحريين اذ كان لا يطيق سماعاً لنصائحهم وارشاداتهم فكان اذا جلس ليلا جمع حوله الغلمان الذين احضرهم من دمشق لانه كان لا يستطيع مفارقتهم ساعة واحدة وأوقد الشموع حولهم فاذا دب دبيب الخمر فى النفوس وأخذت تلعب بالرءوس قام توران شاه من مكانه ممتشقا حسامه وبدأ فى مهاجمة الشموع يحاربها ويكافحها ، يقطع رؤسها ويمثل بجسومها ، زاعما أنها أعداؤه المماليك البحرية .

بمثل هذه الحالة السيئة بدأ الملك المعظم توران شاه أيام حكمه وسلطنته لاهيا عن الواجبات التى يجب تنفيذها فى مثل تلك الايام العصيبة والأوقات الرهيبة التى يعانيها المسلمون ، سائراً على المناهج الوعرة المؤدية الى اثارة الفتن وتفكيك أوصال البلاد .

كان ملكا مستبداً وحاكما مغروراً وأميراً عديم الوجدان ، فكرهته الرعية بعد أربعين يوما من تولية الحكم وابتدأت تعيب عليه أعماله وحركاته أما المماليك البحريون ، تلك الكتلة القوية فى عنصر الامة فقد جاهرت علنا بعدوانه وأقسمت بالانتقام وأخذ

الثار عقب حادثة الشروع .

لم يبق انسان فى مصر يرعاه ويعمل لصالحه فقد كسر القلوب وصدع النفوس وأمضى بيده حكم اعدامه . وبينما كانت شجرة الدر فى قصرها بالمنيل تقضى أوقات الحياة محفوفة بالعز والاجلال ، مرموقة بأنواع الترف وضروب الرفاهة . أرسل اليها توران شاه يطلب منها رد أموال أبيه وأملاكه اليه ويهددها باستعمال القوة والعنف فردت عليه تقول انها صرفت أموال أبيه في الجهاد المقدس . الا أن جوابها لم يرق فى نظر توران شاه فغضب غضباً شديداً وقابل اجابتها بلهجة عنيفة لا يليق صدورها من رجل لامرأة أبيه ما كانت شجرة الدر لتنتظر مثل هذه المعاملة وقد حركت هذه الحادثة الحنق والغيظ فى تلك النفس العصبية ، ودفعتها الى تحريك المماليك ضد (توران شاه) فى الحال فلم يتردد هؤلاء فى اجابة طلبها السابق غيظهم منه واستعدادهم الى مجابهته بالشر والعدوان .

تذكرت شجرة الدر جميل صنعها مع ابن زوجها وكيف انها جاهدت فى سبيل كتمان خبر الوفاة وكيف دبرت مجىء ولى العهد ومهدت له سبيل الحكم وكان كلما لجت بها الذكرى اشتد غضبها وازداد هياجها وتمردها نحو من أحسنت اليه فاساء المعاملة وقابل الجميل بالخيانة والنكران .

لو لم تكن شجرة الدر لانفجرت قنابل الثورات فى البلاد عقب

وفاة الملك الصالح ولولا تدبيرها ومهارتها لساء الحال والمآل أيكون جزاء سياستها الحسنة مقابلتها بالعدوان؟ أيصل بها الحال الى هذا الحد من الامتهان بعد كفاحها وجهادها في سبيل توطيد دعائم العرش لابن زوجها؟ لا لوم عليها بعد اليوم ولا تثريب اذا هي رفعت لواء التمرد والعصيان فقد اتسعت بينهما شقة الخلاف وأخذ الذين يحتاطون بتوران شاه يعملون على اشتداد الازمة وينفخون فى صدره ما يزيد النار ضراماً فيقولون له: «انما الملك والقوة فى يد شجرة الدر وما أنت سوى قالب للحكم. انك لضعيف عاجز، لا تستطيع أن تتمتع بالسلطة ما دام منافسوك على قيد الحياة»

تقع أمثال هذه الكلمات فى نفسه وقوع القنابل فيثور ثورة الجنون، مقسماً بأغلظ الأيمان على قتل جميع المماليك ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن لقد قتله المماليك قبل أن يقتلهم وتمرد عليه أولئك الذين هاجمهم فى صور وأشكال من الشموع تحت امرة (أق طاى) سفير مملكته الى دمشق كان توران شاه قد وعد (أقطاى) هذا بأن يوليه محافظا على الاسكندرية ولكنه أخلف وعده مما قال الى الفتنة والعصيان

فى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر محرم، تناول توران شاه طعامه مع الأمراء والحاشية فى المضرب الخاص كالمعتاد وبعد أن تركهم ودخل ردهة القصر ليستريح قليلا ، هجم عليه

أحد المماليك بسيف مشهور فرفع الملك يديه مغطيا وجهه فأصابه المملوك فى أصابعه وما كاد الضارب يرى ذلك حتى اضطربت أعصابه وسقط السيف من يده ولاذ بالفرار .

اغمى على الملك المعظم وتولاه الخوف لأول وهلة ولكنه سرعان ما عاد اليه قوته وفكر فى أمره فوجد أنه على أبواب الخطر وأنه لا أمان لحياته فيما اذا أقام فى القصر فهرول نحو البرج ليعتصم به ورآه المماليك وهو يصعد قمة البرج فاحتاطوا به احاطة السوار بالمعصم : .

صاح الملك يطلب الأمان ولكن لم يجد انسانا يعطف عليه ويشفق على حاله فى تلك الازمة فقد كان الامراء والمماليك والشعب جميعا يبغضونه ويتمنون له الموت والهلاك . وهو فى صياحه وندبه واذا بالامير حسام الدين يقترب نحو القصر على رأس كتيبة من فرسان المماليك ولقد حاول سفير امارة بغداد أن يمد اليه يد المعونة اذ ذاك فقامت عليه قيامة المماليك واضطروه الى التزام جانب الحيدة والسكون هاجت فارسكور وماجت بصنوف المماليك والامراء وهجم الجميع على القصر يطلبون من توران شاه أن ينزل والا أحرقوا عليه البرج فلم يبق له أمل فى الخلاص غير أنه ظل يطلب منهم الأمان والرحمة مستغفرا عن سيئاته وآثامه الا أنهم استمروا فى اصرارهم وتفهم الى أن أشعلوا النار فابتدأ اللهيب يتصاعد الى عنان السماء

وقبل أن تصل ألسنة النيران الى توران شاه ألقى بنفسه فى النيل فرمت جموع كثيرة بنفسها وراءه وسدد الباقون على الشاطىء سهامهم نحوه وهو يعدو سباحة فى الماء .

بدأ يغالب الأمواج وبدأ الناس تقتربون منه وينالون جسمه بأطراف سيوفهم وهو يناديهم بقوله : « دعونى أخرج من مصر انني لم اظلمكم الى هذا الحد فتعذبوني على هذا الوجه » فلم يسمع له قول لأن حب الانتقام كان قد استولى على النفوس وكانت جموع كثيرة تطارده فى النيل مدفوعة بهذا العامل حتى وصلوا اليه فقتلوه شر قتلة فمات الملك المعظم توران شاه ، الحلقة الاخيرة فى سلسله الايوبيين ، على هذا الوجه الغريب الذى أثار دهشة المؤرخين : محروقاً مقتولا مغروقا مذموما من الناس مبغوضا من الرعية بعد أن حكم سبعين يوما .

استأنف الامير حسام الدين مفاوضات الصلح مع الصليبيين عقب هذه الحادثة وامضي عقد الصلح وكان الصليبيون اذ ذاك فى حالة سيئة فجيوشهم مشتتة ودمياط التى تحصنوا بها محاصرة ونال الطاعون منهم فكان يفتك بجنودهم يوما بعد يوم يسوقهم الى الخراب والدمار فقبلوا الصلح وكانت شروطه فى مصلحة المسلمين اذ كانت تحتم على اهل الصليب بأن يدفعوا غرامة حربية قدرها أربعمائة الف دينار .

وفى اليوم الثالث من شهر صفر عام ٦٤٨ هجرية ترك ملك فرنسا ذلك الذى ساق مسلمى الاندلس كالاغنام ، دار القاضى فخر الدين حيث كان سجينا وترك جنوده ثغر دمياط يسحبون أذيال الفشل والعار مبتعدين بسفنهم وفلول كتائبهم عن مصر على أمل العودة لتخليص بيت المقدس ووفاء النذر ...أما الأمير حسام فقد أسرع مع جنوده وأمرائه الى القاهرة فاستقبلتهم البلاد بمظاهر الفرح والسرور اذ اشتد حماس الشعب على أثر انعقاد الصلح وانكسار الصليبيين فدخل عاصمة البلاد دخول القائد الظافر وتوجه من وقته الى قصر النيل وهناك أقاموا شجرة الدر باجماع الآراء أميرة لهم تحت عنوان « الملكة عصمة الدين » فتقلدت الحكم بحفلة زاهرة ، كانت حداً فاصلا بين خاتمة الايوبيين وبداية حكم المماليك .

الفصل الخامس

مثل الناس فى هذا العالم الفانى ، مثل الضيوف فى الفنادق الفخمة ، أولئك الذين يتركون آثارهم فى سجلاتها ابقاء للذكرى بفقرة جميلة ، أوعبارة لطيفة ، أو بذكر الاسم على حدة غفلا عن زخارف اللفظ أو تنميقات المعنى . كذلك الناس فى دنياهم الفانية كل منهم يترك أثراً يتناسب مع كفاءته وماله من ميزة وقدرة تخليداً لذكرى الاوقات والازمان التى يعيشها وما هذا الاثر سوى حياته فاما أن يدل على عيش هنىء مرفه واما أن يعبر عن سلسلة من الحوادث المؤثرة وأما أن يحدثنا عن عصر حافل بجليل الاعمال .واذا وصل الاثر الى مثل هذا الحد من الكمال ، كان جديراً بعناية الخلف ، يستظهرون منه دروس العظة والاعتبار .

ليس فى مقدور كل حى أن يصل الى درجة الكمال فى الحياة اذ العيش بهدوء وسكون بلاضجيج ولا ضوضاء ميسور لكل فرد. فالمرء يستطيع ان يقضى أيام حياته على طراز واحد من الراحة والسكون ،

اما العمل على ابقاء أثر ما فيتطلب جهداً وكفاءة والخروج

من دائرة المألوف جرأة لا يقوم بها سوى الجمهور.

الشرق محافظ ، متمسك بأهداب القديم ، وله عادات وتقاليد محبوبة ولكنه مفرط في محبتها الى حد انزالها منزلة العقائد والمذاهب فالنساء لا يتربعن على منصات الحكم في بلاد الشرق ولا يوثق بهن الى حد تسليم أزمة الادارة لايديهن فلا تكون المرأة سوى كمية مهملة لا يعتد برأيها ولا يقام لها وزن وقل من يعرف شيئاً عن حالتها الروحية . فليس لها اليوم منزلة اجتماعية ولذلك لا يكاد يوجد انسان يسأل عن منزلتها ويتعرف أحوالها وشئونها في الازمنة القديمة. لقد امتزجنا نحن الشرقيات امتزاجا قليلا بالمدنية الاوروبية فتمشينا في تيارها ونسينا شخصيتنا حتى صار مثلنا مثل تارك الصلاة المقيم بين جامعين [1] علينا ان نغترف من مناهل المدنية الغربية ولكنه لا يليق بنا نحن المسلمات أن نضحي في سبيل هذا الواجب جميع الشرق وعاداته الجميلة وتقاليده الحسنة .

(تشير الاميرة الى نادرة مشهورة لا بأس هنا بايرادها «طلب رجل من عبده أن يجد له بيتاً بعيدا عن المساجد وكان قليل الصلاة يميل الي اللهو والمجون فدله العبد على منزل بين جامعين فقال. ويحك أريد ان أبتعد عن المساجد فتدلني على مثل هـذه الدار فأجابه لا بأس عليك يامولاي ؟ أهل هذا المسجد يظنونك تصلي فيه وأهـل ذلك يظنونك مداوما على الآخر فيكون لك ماتريد»

لنضع نصب أعيننا نحن الشرقيات ترك السفاسف واتفهم الواحدة منا أنها ليست لعبة أو زينة. اننا نعيش فى زمن لا يتسع لأمثال هذه الصغائر علينا أن نتفهم حياة السلف ونعمل على تخليد صحائف أعمالنا ولتشعر الواحدة منا بالمسئوليه الملقاة على عاتقها. الفرد جزء من الانسانية ومجموع الخلق هى الانسانية . وما نحن الشرقيات سوى قطعة منها

أين شخصيتنا ؟ لنسع فى اظهارها .وكفى ما نالنا من الاذى وما أصابنا من الضرر بسبب جهلنا كيف يسوغ للهلال والنجمة أن يغمرهما الظلام وتحجب الغيوم ضوءهما من النفوذ الينا إن امة لها مثل هذا الزمن كان يجب أن تكون فى مقدمة الامم نورا وعرفانا

اذا رغبنا فى الحياة، اذا شئنا الا يمحى اسمنا من صحيفة الوجود، فليس أمامنا سوى طريق السعى والعمل بنظرية تنازع البقاء بما فينا من جهد وحسن نية الى أن نتمكن من ازالة ما علق بأذهان الاوربيين ضدنا من الاوهام والنوايا السيئة . لو استطعنا أن نصل الى الدرجة التى كانت عليه نساء الشرق قديما لوقفنا قليلا فى سبيل تدهورنا فى هوة التدنى .لم تكن شجرة الدر شخصية كاملة ولكنها استطاعت أن تظهر على مسرح الحكم والسياسة فى زمن عصيب وكونت لها قصة تشتاق الآذان لسماعها وهذا ما حدا بى الى تصوير قصتها وشئون حياتها للقراء

* * *

عند ما وقع اختيار حسام الدين ورجاله عليها لتكون ملكة مصر وأميرة البلاد كانت تقطن في سراى المنيل، على شاطىء النيل وفى أجمل موقع من مواقع مصر وكانت اذ ذاك وسيمة الوجه، جذابة الملامح، يقرب عمرها من الاربعين، ذات دراية وحنكة فى شئون الحكم والادارة، اشتهرت بها منذ ايام زوجها الملك الصالح.

افتتنت بالملك وتمشقت أبهة الحكم فبنت صرح مجدها وشهرتها بيدها ولكنا لا ننسى بجانب ذلك حبها الخير وايثارها رفاهة الشعب وبحبوحته على كل أمر وشأن فأنقصت الضرائب وغمرت المماليك بالهدايا واغدقت عليهم المراتب والمناعم اذ كان أقصى امل لها ان تفوز بحمد الناس ومحبتهم لها.

يدلنا على حسن ذوقها ما كان فى قصرها من حسن الترتيب وظرف التأنيث فى القاعات والحجرات توقد شموع العنبر المحمولة على أواني الفضة والذهب على الطراز العباسى وتقع العين فى أرجاء القصر على نفائس الاقمشة الحريرية المطرزة بالديباج الاصفر والابيض وأوانى الفضة وصحون الذهب وجامات البلاور

والاقداح المزينة حافتها بسطور اللؤلؤ وخطوط الاحجار الكريمة اذ كان لها ولع بأدوات الطعام، وغرام فى اقتناء نفيس الثياب، ورغبة حارة فى مظاهر الابهة والدبدبة (١)

ماكادت تستلم زمام الحكم حتى تركت قصرها البديع ومافيه من نفائس وزخارف وانتقلت الى القلعة المشهورة التى بناها صلاح الدين الايوبى واتخذتها مقراً للحكم فى هذه النقطة العالية المتوجة لرأس المقطم والمشرفة على جميع القاهرة كان يقيم من سبقها من الحكام فصارت هى الاخرى سيرهم لان قصر المنيل لم يكن منيعا حصينا الى حد مقاومة الهجمات وصد تيار الفتن والمشاغبات اما أسوار القلعة فتينة رصينة تقوم بالغرض وتفى بمثل هذه الحاجة.

* * *

بدأت شجرة الدر تجمع وزراءها فى غرفة من غرف القلعة وتحضر هى مجلسهم من وراء ستار رقيق ثم عينت أحدهم، وهو عز الدين بن ايبك، اتابكا أى فى رتبة تماثل رتبة رئيس الوزارة فى أيامنا هذه

كان عز الدين قائدا محنكا جرىء القلب ذكى الفؤاد مشهورا

---

(١) موقع قصرها بالمنيل هو المكان الذي سيقام عليه المنتدى الكبير التى ازمعت احدي الشركات على بنائه واوقف بناؤه الآن

بعلمه وفضله ودرايته ، عرف كيف يستولى على قلوب الخلق وينال ثقتهم كما بدأ يفوز بالتفات الملكة وحسن تقديرها لكفاءته يوماً بعد يوم.

لم تكتف شجرة الدر بأن يقرأ اسمها فى خطب الجمعة بل ضربت نقوداً باسمها نقشت على وجه منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الوجه الآخر:

«المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة منصور خليل الخليفة أمير المؤمنين»

(١)

كان دورها زاهياً زاهراً وصار الناس يتفاءلون خيرا بقدومها وبدأ الفقراء يتنعمون بمبراتها وحسناتها اذ كانت ملكة عاقلة لبيبة على دراية تامة بأصول المسائل وفروعها ولقد أحدثت فى الاسلام بدعة حسنة لم تزل فى مصر الى يومنا هذا ، هي بدعة المحمل الشريف ، ففى عهدها سافر أول محمل فى الاسلام من مصر الى الحرمين الشريفين . انها ابتدعت أمرا حسنا فلها ثواب تلك البدعة الى يوم القيامة . من أحدث بدعة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها

---

(١) ابن اياس

ومن أحدث بدعة سيئة فعليه وزر من عمل بها الى يوم الدين.

كانت شجرة الدر رغم مظاهر حياتهـا الخصوصية ،امرأة مسلمة ذات ميزة خاصة فى حياتها العمومية . كانت على علم تام بنفسية الشعب ولم تكن حكومتها استبدادية . لاتشرع فى عمل من الاعمال حتى تعقد مجلس المشاورة ولا تصدر قرارتها الابعد الرجوع الى رأى وزرائها ومستشاريها واذا حدثتها نفسها بأمر تريد ابلاغه الى الناس مباشرة أرسلت فى طلب وزيرها ابن ايبك وبعد المباحثة والمناقشة معه تأمر بأصدار أوامرها الملكية .

فـكان الاتابك لايقصر فى كل سبيل يؤدى الى مرضاة الملكة . :

وبينما كان حكم شجرة الدر آخذ فى طريق الشهرة بما كـان يلاقيه من اقبال الشعب ورضائه التام بدأت عصابة من الناس تدس الدسائس وتنصب شباك الاحابيل حول عرشها رغبة فى اسقاطها لحة هذه العصابة اتباع توران شاه ممـن فروا الى الشام وسداها الخليفة الزمنى المستعصم بالله ونفر من أشياعه ومريديه .

قامت الفتن على ساق وقدم وبدأ العصاة ينفخون فى ابواق النفاق بما يرمى الى الشقاق بدعوى انه لا يجوز شرعاً لامرأة ان تتولى شئون المسلمين مع ان شجرة الدر لم تأت أمرا يغضب عامة الاسلام سواء أكان فى مصر أو فى سوريا فضلا عن

اجلالها واحتراما لمقام الخليفة المستعصم بالله .

تفاقم الخطب واشتد الصخب ، وقامت بغداد تهدد مصر ، فكانت الرسائل والأوامر تترى ، بطلب خلع شجرة الدر واقامة أمير من الرجال ومخابرة الخليفة لتعيين أمير عادل اذا تعذر عليهم وجود رجل من بين المصريين يصلح لهذا الامر !.. وكانت الرسائل موجهة الى المماليك ومصوغة فى قالب اللوم والتعنيف ومعززة بالاحاديث والاسانيد المنذرة بخراب الامة التى تتولى النساء شئونها وتتصدر مجالس الحكم فيها . وما كادت تروج هذه الدعوة وتتناقلها الالسن فى المجالس والمحافل حتى بدأ المماليك يفكرون فى وجه الصواب . كانوا يرون أن حكومة شجرة الدر لاتخالف الشرع فى شىء ، اذ كانت مؤسسة على دعائم الشورى فكانت لاتبرم أمراً دون أخذ رأى الوزراء ووجوه البلاد فضلا عن مهارتها فى ادارة دفة الاحكام ، تلك المهارة التى تجلت فى شكل رائع ملموس لايدع مجالا لقول قائل ، ولكن ماالعمل ؟ وكيف يمكن التوفيق بين وجهتى النظر في مصر والشام فى وقت عصيب يهدد فيه خطر الصليبيين ؟

بينما كان المماليك يفكرون فى هذا الامر ويقلبون الرأى على وجوهه ليتبينوا من خلاله وجه الصواب واذا باتباع (توران شاه) يحثون أهل الشام على التخلص من حكم مصر بدعوى أنها

ذات حكومة غير شرعيه ، فقاموا بدعوة أمير حلب (الملك الناصر يوسف الايوبى) وبايعوه اميراً على الديار الشامية ثم قاموا على أشياع شجرة الدر واستأصلوا شأفتهم فتم لهم ما أرادوا وفصلوا تلك القطعة الكبيرة عن الحكومة المركزيه فى مصر

على أصحاب الغايات النبيلة والمقاصد الشريفة بذل النفس والنفيس فى السبل المؤدية الى تحقيق الغرض ولكن الذين نادوا بسقوط شجرة الدر لم يعملوا بهذا الدستور . انهم آثروا تضحية حكومة عظيمه فى سبيل أغراضهم الشخصية . كانت هذه الفئة الهادمة العاملة لمصالحها الشخصية تعمل على تعكير المياه كلما قاربت حد الصفو ، رغم مهاجمات الصليبين وما يهدد البلاد الاسلامية من المصائب والاخطار فأدركت شجرة الدر بفطنتها وحسن درايتها حقيقة الحال فعقدت مجلساً من اركان الدولة واستشارتهم فى الامر وطلبت منهم أن يبينوا لها الطريقه المؤدية الى ارضاء السوريين والوسائل الموصلة الى حسن التفاهم بين القطرين الشققين .

كان الموضوع عويصا يتطلب رأيا حسنا وتدبيراً محكما فلم تشأ أن تطلق العنان لمشاعرها بل طلبت من وزرائها المعونة والتعضيد بعد أن طرحت الامر على بساط البحث بكل رزانة وثبات . اما المجلس فقد فحص الامر بعناية واهتمام وأظهر لها وجوب الاهتمام بما يؤدى الى راحة الشعب وسلامته مع بيان امتنانهم لها ولحكومتها وقر

رأيهم بالاجماع على ان تترك زمام الادارة الى عز الدين بن ايبك وان يعقد له عليها عقب تنصيبه للحكم .

تم تنفيذ القرار وتعين عز الدين بن ايبك سلطانا على مصر وأرسلوا الى الخليفة يشعرونه بتبدل الحال .

لم يتغير الحال كما زعموا ، بل كانت شجرة هي الحاكمة تنهى وتأمر من وراء الستار عقب زواجها بأمير البلاد .

تربعت شجرة الدر فى قلب عز الدين كما تربعت في عرش مصر من قبل ، فكان يخدمها خدمة العبد للسيد ولا يتوانى لحظة واحدة عن سلوك السبل المؤدية الى راحتها ومرضاتها . كان يرى خدمتها دينا في عنقه يجب اداؤه فصار نقابا لها تبصر وتعمل من ورائه وأداة لسرورها ونعيمها .

لم تصل شجرة الدر الى هذه المنزلة اعتباطا ولم يحلها عز الدين من نفسه ذلك الاحلال اسرافا لقد كانت امرأة زاهية ، زاهرة ذات جاذبية وذكاء وعلى علم ودراية فليس من السهل على المحتكين بها المتصلين بشخصيتها التوقى من قيود تلك الجاذبية

كان الملك الصالح يتلقى رغباتها كأمر يحتم تنفيذه ويرى فيها درة نفيسة في تاج حياته أما عز الدين فكان مفتونا بها بحرارة الشباب مع أنها أسبق منه فى مراحل العمر .

كان الاتابك عز الدين ، اديبا ، عاقلا ، ذكى الفؤاد . فأحبه

المماليك وجعلوا لايخرجون عن رأيه ومشورته في كل أمر .

* * *

بعد تعيين عز الدين ملكا على مصر وتسميته (الملك المعز أيبك) فرح الناس بحكومته المشتركة بينه وبين زوجته شجرة الدر وتطلعوا الى الراحة والسكون عقب تلك الانقلابات والتطورات لكنهم لم يدركوا أمنيتهم اذ تجددت الثورات في الشام مرة أخرى واتصل بالمصريين خبر قيام أحد أقرباء توران شاه مع نفر من اتباعه وأشياعه ، يعضدهم بعض المماليك ووجهتهم مصر فاضطرب المصريون ووقع الخبر عليهم وقوع الصواعق .

لم يقبل السوريون بحكم المعز وهاجموا مصر متمردين ساخطين صاخبين ، طالبين اقامة ملك من سلالة الايوبيين. ولم تنقشع سحابة غضبهم وتهدأ ثورتهم الا بعد أن أقاموا يوسف مظفر الدين أحد أبناء الملك مسعود ، من الاقاليم الشرقية ملكا على مصر وحلب

مصرنا هذه ، مصرنا المسكينة ، معرض الغرائب، تحت سماء تساعها يأتلف الخصمان ويجتمع الضدان ففي العام التاسع والاربعين بعد الستمائة من الهجرة ، كان على عرش مصر حاكمان، أولهما الملك المعز ايبك وثانيهما الملك مظفر الدين يوسف، تقرأ لهما الخطب وتضرب النقود باسميهما ويحكمان معا جنبا الى جنب غير أنه

شجرة الدر ما زالت وراء الستار وفى يدها زمام الحكم الحقيقى تصدر أوامرها بسكون وهدوء وهي فى دائرتها الخاصة فيهرع الحاكمان لتنفيذها والعمل بمشيئتها .

لم يكن الاثنان سوى لعبتين صغيرتين ، أما الحاكم الحقيقى للبلاد فهى الملكة عصمة الدين التي تروح وتغدو بثيابها المزركشة فى قاعات قصرها الفخم المحتجب وراء أسوار القلعة

شعر ايبك باضمحلال سلطته فاشترى عدداً كبيراً من المماليك وعمل على اكتساب ثقتهم وتعضيد نفوذه أمام خصمه . وقد حدث ما كان يتوقعه فان رجال مظفر الدين حاصروا القلعة ذات يوم يريدون خلع ايبك ولكنه قاومهم مقاومة عنيفة وبعد أن شتت شمل اكثرهم تمكن من قتل زعيمهم (قطاى) قاتل توران شاه ورمى برأسه من وراء أسوار القلعة وما كاد المحاصرون يرون هذه الحال حتى أركنوا جميعا الى الفرار وكانوا يبلغون سبعمائة فارسا

بعد هذه الحادثة قبض المعز على خصمه مظفر الدين وحبسه فخلا له الجو مرة أخرى .

الفصل السادس

العشق نبات لاهوتي ، ينمو بطبيعته في كل زمان ومكان وفي كل بلد واقليم ، فلا الرياح ولا العواصف ولا الامطار تعوق هذا النبات عن النمو والنضوج ، لانه ينشأ حيثما شاء وأينما اراد ولهذا النبات المحبوب ، زهرة لطيفة جديرة بالنظر والاعتبار

ولكن لشمس العشق اشعة نارية تعمل في هـذه الزهرة ما لا تعمله الطبيعة لقد تؤثر على لونها فتصيرها باهتة شاحبة بعـد النضارة والزهاء ، وللمين دموع تزح بانهمالها وانسجامها مالها من رائحة عبقة واريج فياح وللقلب ثورات وهبات تنتشر معها اوراقها الجميلة فتذروها الرياح انها لزهرة رقيقة قد تذبل عند اقل اهمال فهي تنبت في الارض العامرة والتربة الخصبة ويتناسب عمـرها طولا وقصرا بقـدر خصوبة التربة والمنبت فمن استطاع سبيلا الى تربية هذه الزهرة ، زهرة الطبيعة زنبقة النور ، عرف كنه الحياة فاذا علمنا ان المهتمين بفن تربيته قليلون ادركنا كيف ان الكثيرين تذبل زهراتهم في مدد قصيرة .

حكذا الحال مع شجرة الدر والمعز فان زهرة حبهما واخلاصهما

اصابتها يد البلى بعد عواصف نفسية دامت اربعة اعوام بدأت عوامل الحياة والنمو تتقلص فى زهرة الحب النامية فى قلب المعز حتى ذبلت . اجل لقد ذبلت تلك الزهرة الناضرة بغرور شجرة الدر ذلك الغرور الذى اطفأ النيران المتأججة فى صدر حبيبها المعز

كانت الملكة عصمة الدين أميرة تليق بسياسة الشعب وادارة الاحكام . أما فى منزلها ، فى مملكتها الصغيرة فقد كانت مستبدة توقع الرهبة فى قلوب حاشيتها وتبعث السآمة والملل فى نفس زوجها .

كان المعز مفتونا بشجرة الدر ، منذ زواجه بها عام ستمائة وثمانية وأربعين هجرية . كان يجلها ويحترمها من اعماق النفس وصميم القلب لذكائها وجمالها ومركزها وماضيها المجيد وكانت هى تعلم منه ذلك وتعتقد بدوام هذه المحبة فيرتاح نفسها وتفتخر بحالها لم يخطر ببالها انه سيأتى على المعز يوم يتزوج فيه امرأة غيرها لو فعل ذلك لما غفرت له مثل هذا الذنب اذ ترى ان المعز انما صار سلطانا على مصر بسعيها وفضلها فكانت تجاهر بهذا الراى وتجابهه به ولا تجد لوما فى ان تقول له : «ماوصلت اليه من عز وجاه ، انما وصلته من طريقى» فكان يخجل من ذلك ويشعر باضطراب داخلى

لم يأبه كثيرا لهذه الاقوال فى مبدأ الأمر ولكنه بدأ يشعر بوقعها الأليم على مر الايام . انه لا ينكر فضلها وعظيم اياديها

عليه ولكنه لم ينشأ صعلوكا حقيراً . قد كان ضابطاً عالماً عاملا ثم أميرا ذكى الفؤاد ، ذا شخصية ومكانة

* * *

جمعت الملكة عصمة الدين الى حسن الوجه جمال النفس فهي لذلك امرأة جديرة بالحب ولكنها أكبر من ايبك سنا وبدأت عوامل الانهماك فى المشاغل الدنيوية تظهر أثرها على أديم ذلك الوجه الناصع وأخذ نور بهجتها فى الافول وكلما ازدادت خطوة فى طريق العمر ، زاد طيشها واشتد نزقها الى أن صيرها الكبر ذات طبع نارى ومزاج عصبى ، تستبد مع من حولها تشاكس زوجها وتنغص عليه عيشه وتضيق دونه المذاهب والمسالك صباح مساء

أما هو فكان يغضب لهذه المجادلات اليومية فيزداد نفوره منها حتى أصبح يتغيب كثيراً عن القلعة وكان هذا التباعد يزيدها غيظا لانها بدأت تشعر بزوال محبته لها فاشتد تعلقها به وازداد هيامها وصارت ترى فى كل حركة من حركاته وكل طور من أطواره حالا يستوجب الغيرة

كان لزوجها امرأة اخرى هي ام ولده الوحيد عقد عليها قبل زواجه بشجرة الدر ، فعلمت بهذا الامر وحكمت عليه ان يبتعد عنها بتاتا ثم خشيت الا ينفذ أمرها فأمرته باحضارها وتطليقها منه

فى الحال. تم لها ما أرادت ووصلت الى بغيتها ولكن ظلت نيران الغيرة تتأجج فى ذلك الصدر المتقد وعاد زوجها الى الابتعاد عن الملكة والنفور من دائرة الحريم واتسعت شقة الخلاف بينهما حتى انقلبت على مر الايام - الى خصومة متينة انتهت بمأساة دموية فجيعة:

*
* *

مهما ارتقى الانسان وعلت شخصيته فهو بشر لا يسلم من عوارض النقص

شجرة الدر امرأة ذات شخصية بارزة قل ان يوجد لها نظير شقت بغرورها، ووصمت سلسلة حياتها بفعلة شنيعة من جراء هذا الخلق الفاسد

لقد تطرفت مع زوجها فى سوء الخلق الى حد الملل والى أحد أن استفزت فيه روح الانانية فطلب بدلؤلؤة بنت بدر الدين أمير للوصل وعرض امنيته هذه على المماليك فعارضه المخلصون منهم لشجرة الدر ولم يوافقوه على مايريد بل جاهروا بأنه لا يليق بأمير نبيل مثل المعز أن يرتكب مثل هذه الهفوة فغضب لذلك وأدى به الحنق الى القبض عليهم والقائهم فى غيابات السجون

ولما كانوا فى طريقهم الى السجن مربهم الحراس من تحت الشرفة التى تجلس عليها الملكة فتأخر زعيمهم (سبكتكين) قليلا

ونادى بالتركية يقول : «نناشدك الله أيتها الاميرة ان تخبرينا عن سبب القبض علينا ، أننا رجالك المخاصون يريد الامير ان يعقد على لؤلؤة بنت امير الموصل فعصيناه لاننا نرى فى ذلك اهانه لاميرتنا» وكانت الاميرة اذ ذاك فى الشرفة فرفعت منديلها تشير اليهم انها فهمت قولهم ثم سيقوا الى السجن وقلوبهم تتأجج بنيران الانتقام التى لا يستطيع المعز اطفاء لهيبها

لم يكن المعز فى قصر القلعة كعادته بل كان مقيما فى قصره «مناظر اللوق» المشرف على النيل بجوار الازبكية ، كان نافرا من شجرة الدر يجتنب حرمه عملا بارشاد منجمه الذى أخطره بأنه يموت مقتولا من يد امرأة اما امرأته فكانت تريد الاستفادة من هذا الظرف فرسمت خطة باهرة للتنكيل بالمعز وأرسلت تدعوه الى القلعة مرارا بعد ان أعدت معداتها لهذا الغرض

لم تكن شجرة الدر ، تلك المرأة الحاكمة القديرة واعا الغيرة والحدة والحنق كل هذه العوامل كانت قد اتلفت جهازها العصبى وصيرتها شيطانا تتحكم فيه الجنون والهوس . قد انقلبت فيها خصال الرزانة وعلو الطبع وقوة لارادة الى صفات الغيرة والحرص والانتقام .

***

لم يشأ المعز أن يجيب دعوات امرأته فى بادىء الأمر لأن اخطار المنجم ما زال عالقاً فى ذهنه ، ترتعد فرائصه كلما خطر بباله الا أن تكرر الدعوات أثر فى نفسه وتوهم من خلالها الصدق والاخلاص فأجابها الى ما أرادت وزار زوجته فى قصر القلعة ، حيث قابلته بالتجلة والاحترام مظهرة له كل عطف وحب بل غالت فى الملق والرياء الى حد تقبيل أياديه ومحو كل ظن سيىء من نفسه فركن اليها المعز كل الركون وقضى معها يومه وطاب فى مسائه أن يدخل الحمام ولكنه ما كاد يلج باب الحمام حتى فاجأه بضعة رجال تلمع السيوف المصلتة فى أيديهم فهم تصدم وأدرك أن ذلك من تدبير شجرة الدر فناداها باسمها وتوسل اليها بكل ما فيه من جهد وقوة . ويظهر أنها كانت على كثب من المكمن ، لانها لم تستطع ثباتاً امام توسلاته فاظهرت نفسها وطلبت من رجالها أن يحقنوا دماءه إلا ان الرجال لم يصغوا لقولها ، خشية غضبه وانتقامه أنهم نزلوا عند رأيها واخلوا سبيله . ثم هجموا عليه وكتموا أنفاسه فى ذلك المكان وبعد ان نفضوا أيديهم من فعلتهم الشنعاء اخفوا جثة الامير فى ردهة خارجية وانبثوا فى ارجاء القصر يشيعون انه اغمى على اميرهم وهو فى الحمام.[1]

---

١ تاريخ مصر الحديث

وقعت هذه الحادثة يوم الاربعاء فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول عام ٦٥٥ هجريه وانتشر فى اليوم التالى خبر موت المعز وارتقى أريكة العرش ابنه نور الدين وعند ما استلم نور الدين زمام الحكم وتربع فى دست الامارة بقصر القلعة أرسل يطالب أمه التعسة ويطالب شجرة الدر قاتلة أبيه وسبب شقاء أمه

وفى كتب التاريخ أن أم نور الدين أمرت جواريها فانهلن بالقباقيب على شجرة الدر ، على ذلك الرأس الجميل المملوء بالغرور ، الى ماتت شر موت ، فالقيت عارية الجسم لا يسترها سوى سراويل رقيقة من برج القلعة الى خندق مجاور لأسوارها . وقد سرق بعض اللصوص تكة لباسها المطرزة باللآلئ ولم يعرفها أتباعها الا بعد زوالها الفاخر فدفنوها فى المقصورة الخاصة بها داخل المسجد المعروف باسمها بجوار السيدة نفيسه بالقاهرة . ولقد فر بعض الاغوات الذين اشتركوا فى مقتل المعز وألقي القبض على البعض الأخر وصلبوا داخل القلعة

وبعد هذه الحوادث المتتابعة بدأت حكومة الملك نور الدين ابن ايبك .

***

حكمت شجرة الدر ثلاثة أشهر بمفردها وعشرين عاما مع

زوجها الصالح والعز وأصابت عزاً وجاها لم تصبهما امرأة أخرى في العالم الاسلامي

يعدها المؤرخون خارقة من خوارق الدهاء ولا يذكرونها إلا بالثناء ويعرفونها للقراء بأنها عاقلة ، قارئة ، كاتبة . ذات دراية وفطنة ومما يؤسف له أن المرأة الكبيرة ، صاحبة الخيرات العديدة والحسنات الجمة . تلك التي ابتدعت لنا حسنة المحمل ، تموت ميتة شنعاء وتلقى في الخنادق كأصحاب الجرائم العادية . (وعلى الباغي تدور الدوائر) ان الملكة عصمة الدين ماتت على يد المرأة التي كانت سببا في تطليقها . لقد طردت ام نور الدين من قصر العاصمة فدارت عليها الدوائر حتى ألقتها المطرودة من برج القلعة . لقد حرضت على قتل الوالد فقتلها لولد !...

العصمة لله والكمال له وحده والمرء عاجز مهما ارتقى ومهما علت شخصيته .

لم تكن شجرة الدر مثال الكمال من كل الوجوه ، وانما كانت حاكمة مدبرة . ذات قريحة وقادة وهي تحكم هواها وتتغلب على شهوة النفس فيها . ولكنها مالبثت أن هوت الى المستوى العادي فأصبحت امرأة لا اكثر ولا أقل منذ ركبت هواها وسارت مع تيار قلبها هذه الشخصية الغريبة التي قدمتها الى قرائي من بين نماذج المخدرات الاسلامية جديرة بالتقدير والاجلال

من ناحية الخدمات الجليلة التي بذلتها في اوائل أيامها وبما كان لها من صدق الطوية في ذلك العهد . والأمر الجدير بالاعتبار والتقدير هو الصالح العام أما الحياة الخاصة فلا دخل لها في هذا الشعور ومن أجل ذلك نعدها من آلهات السياسة التي لم يسبق لها نظير

لقد مضى على موتها شهور وأعوام وأصاب الشرق تقلبات كثيرة وتطورات عديدة وانقرضت أمم ونشأت على انقاضها أمم ولكن لم تسطع بعد شرارة واحدة مثل تلك الشرارة التي سطعت من أنقاض الايوبيين

شجرة الدر الأيوبية جوهر نادر نفيس . ومن أغرب لآلي الشرق . كان دورها عجيباً وأيامها سلسلة من الحوادث ذات شئون وشجون ..

عملت ما في وسعها لتقف حائلا دون التفرقة بين المسلمين في وقت عصيب فأدركت بغيتها بمهارة نسجلها هنا بفخار ولا نمالك من الدهشة تستولى أنفسنا للاضطراب الذي تخلل سلسلة أيام هذه المرأة الجليلة التي ختمت حياتها بتلك المأساة

حياة كل شخص زمان قائم بنفسه ونهايته بداية زمان آخر

***

(المعمورة) يوم الخميس ١٩ رمضان المبارك سنة ١٣٣١

﴿ محتويات الجزء الاول ﴾

- ١ -

١ ـ ٣٤ (ام المؤمنين السيدة خديجة الكبرى)

الفصل الاول

(٣) أنات وآلام (٤) فى سبيل الشرق (٥) السيدة خديجة بين قومها (٧) بدء الآمال فى نفسها الشريفة

الفصل الثانى

(٩) أمين قريش بين قومه (١٠) المقابلة الاولى بين امين قريش وفاضلة قومها خديجة (١١) أثر هذه المقابلة فى نفس أم المؤمنين (١٢) أمين قريش فى طريقه الى الشام بتجارة السيدة خديجة (١٣) ما توقعه الراهب نسطورا وما توسمه فى شخصية فخر الكائنات (١٦) المودة (١٧) ماشاهده بسرة مولى السيدة خديجة من الآيات البينات

الفصل الثالث

(١٨) الشوق الشريف يتمكن من نفس السيدة خديجة (١٩) بدء الخطبة ومعدات العرس

الفصل الرابع

(٢١) يوم الاملاك ـ خطبة ابى طالب بن عبد الله (٢٢) خطبة

ورقة بن نوفل

الفصل الخامس

(٢٤) حياة عائلية ترفرف عليها ملائكة السعادة

الفصل السادس

(٢٦) بدء الوحي (٢٧) اضطراب الرسول (٢٨) تكهن ورقة ابن نوفل (٢٩) فترة الوحى (٣٠) عودة الروح الأمين وبدء الرسالة (٣١) عداوة قريش ومناصرة ابى طالب (٣٢) وفاة السيدة خديجة (٣٣) وجد الرسول صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين وحديث السيدة عائشة عنها .

٣٥ - ٨٥ ﴿ أم المؤمنين السيدة عائشة ﴾

الفصل الاول - الهجرة النبوية

(٣٧) اشتداد الازمة (٣٨) هجرة المؤمنين الى المدينة وانتظار الرسول صلوات الله عليه وسلم مع الصديق أبي بكر

الفصل الثانى

(٤٠) الامر بالهجرة (٤١) مؤامرة القوم (٤٢) اعتصام الرسول صلى الله عليه وسلم مع صديقه ابى بكر بغار فى جبل ثور (٤٣) حديث ام معبد (٤٤) بناء اول مسجد في الاسلام (٤٦) خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم (٤٦) فرح الانصار بقدوم فخر الكائنات

الفصل الثالث

(٤٧) زفاف السيدة (٤٨) شخصيتها (٤٩) فضلها على زوجات الرسول (٥١) بعض مزاياها

الفصل الرابع

(٥٤) حديث الافك (٥٥) كيف بدأت الحادثة (٥٦) كيف اتصل خبرها بالسيدة عائشة (٥٨) المجلس العائلى (٥٩) خطبة النبي صلى الله عليه واعتذاره من عبد الله بن أبى سلول (٦٠) آلام السيدة عائشة (٦١) البراءة (٦٢) حادثة أخرى للعقد

الفصل الخامس

(٧٤) مبلغ علمها فى الفقه وسائر العلوم ومقدار زهدها وصلاحها

الفصل السابع

(٧٧) وقعة الجمل (٧٨) التحريض (٧٩) حديث أيتكن تنبحها كلاب الحوأب

(٨٠) بين على والزبير وطلحة (٨١) انتهاء الموقعة بفوز الامام على (٨٢) ـ الصلح بين الامام على وعائشة ام المؤمنين

الفصل الثامن

(٨٣) اواخر ايام السيدة عائشة ومنزلتها من اهل المدينة .

-٣-

(٨٦) العباسة اخت الرشيد

الفصل الاول

(٨٨) مقارنة بين الشرق والغرب (٩٠) نظرة الي ماضينا (٩٢) تمنيات الاميرة

الفصل الثاني

(٩٣) نشأة العباسة (٩٤) اثر الرفاهة في حياتها

الفصل الثالث

(٩٧) البرامكة وفضلهم على الدولة العباسية (٩٩) آثار كرمهم (١٠١) جعفر على مسرح السياسة (١٠٢) قصة تدل على مبلغ مكانته ونفوذه

الفصل الرابع

(١٠٧) اعداء جعفر يتكاثرون (١٠٨) زبيدة امراة الرشيد في صفوف العدو (١١٠) بدء احتكاك العباسة بجعفر (١١١) الانس المثلث (١١٢) مجلس الانس في قصر الرشيد (١١٢) خوف الرشيد من نقد علمائه (١١٣) نفسية الرشيد (١١٥) بدء مناورات الاعداء

الفصل الرابع

(١١٦) حنق الرشيد (١١٩) انقلابه على جعفر (١٢١) استجوابه جعفر

الفصل الخامس

(١٢٦) الحسن ثمرة الحب (١٢٧) الرشيد يسافر مكة فلنبحث عن الحسن بن العباسة (١٢٨) أول شرارة من شرارات الغضب

(٢٩) القسم الاول من المأساة
الفصل السابع
(١٣٣) بنات هاشم لا يعرفون سبيلا للهروب (١٤٠) الحادثة التاريخية بين الرشيد واخته (١٤١) خاتمة المأساة

- ٤ -

﴿ الملكة عصمة الدين شجرة الدر ﴾

الفصل الاول
(١٤٤) نظرة تاريخية (١٤٥) الملك الصالح على مسرح الحكم
(١٤٦) شجرة الدر تدير دفة البلاد بالنيابة عن زوجها
الفصل الثانى
(١٤٧) مرض اوليس التاسع ملك فرنسا (١٤٨) نذره العجيب
(١٥٠) عزمه على تطهير بيت المقدس تنفيذاً للنذر (١٥٣) منافسة الصليب للهلال (١٥٤) قيام لويس بالحملة الصليبية السابعة
الفصل الثالث
(١٥٥) الملك الصالح يصل الى المنصورة مريضا (١٥٦) الصليبيون يحاصرون دمياط (١٥٧) لويس يهدد أمير مصر (١٥٩) المسلمون يتركون دمياط عقب فرار جيشهم بلا سبب (١٦٠) انتقام الملك الصالح من الفارين (١٦١) المسلمون يجمعون شتاتهم (١٦١) وفاة الملك الصالح (٦٢) تورانشاه يستلم الحكم بمساعى شجرة الدر

(١٦٣) المماليك البحرية يخذلون اهل الصليب فى موقعة كبرى

الفصل الرابع

(١٦٤) خطبة توران شاه لكسر الصليبين (١٦٧) نفاذ الخطة
(١٦٨) انعكاف توران شاه على الملذات (١٦٩) تألب الرعية
عليه (١٧٢) مقتل توران شاه

الفصل الخامس

(١٧٤) نظرة اجتماعية (١٧٧) نسبة شجرة الدر (١٧٨) عز الدين
ابن ايبك فى مسرح الادارة (١٧٩) قراءة الخطاب وصك النقود
بأسم المستعصمية الصالحية شجرة الدر واول محمل فى الاسلام (١٨١)
اهل الشام لا يرضون بحكم امراة (١٨٢) قرار مجلس الشورى
(١٨٣) زواج عز الدين بن ايبك من شجرة الدر (١٨٤) مصر
يحكمها حاكمان اسميان وحاكم فعلى

الفصل السادس

(١٨٦) تطورات الحب (١٨٨) بعض عيوب شجرة الدر الى
التآمر على قتل زوجها (١٥٣) عبرة التاريخ